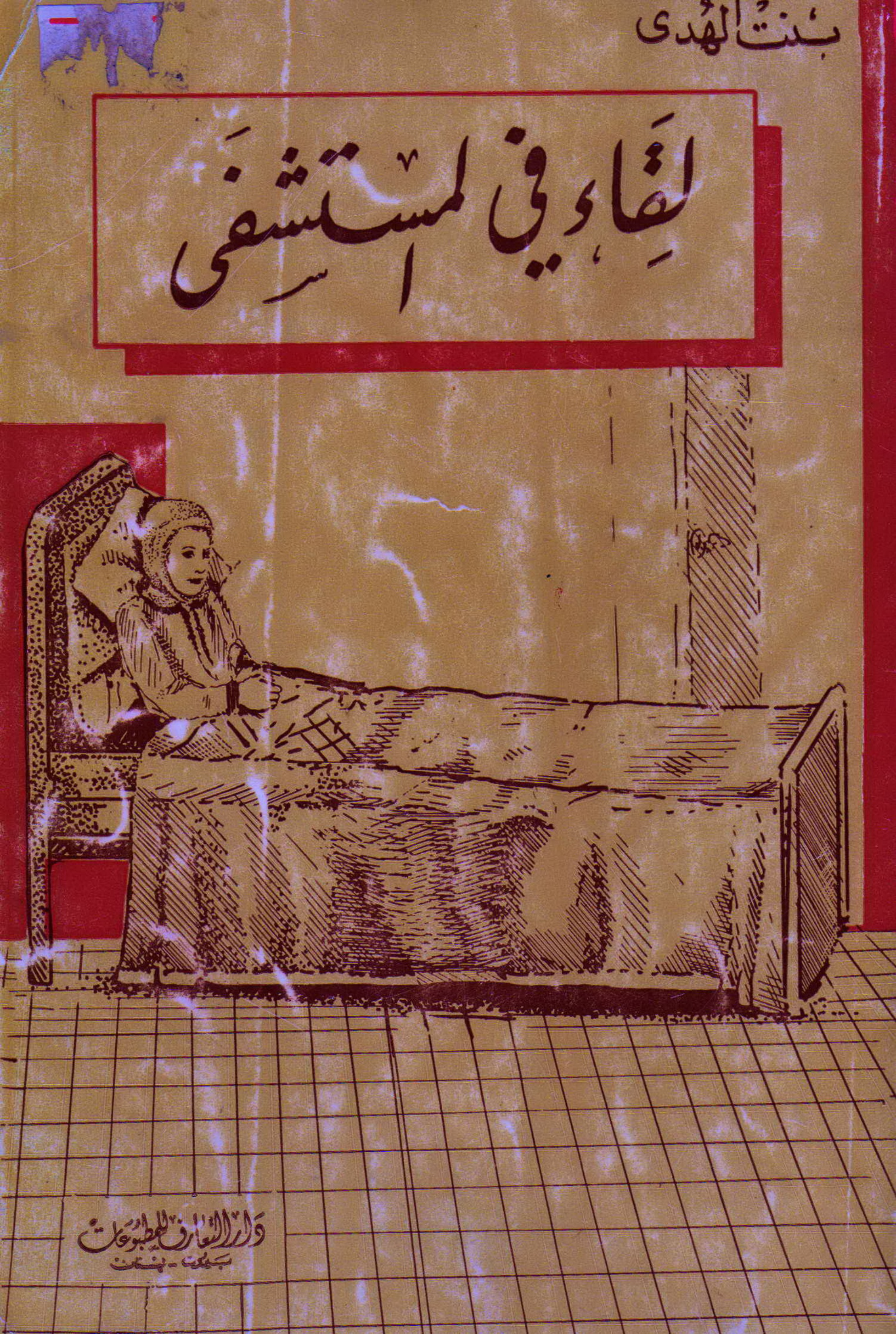

بنت الهدى
لقاء في المستشفى
دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

بنت الهدى

لقاء في المستشفى





الطبعة الثالثة
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقلبت الدكتورة معاد على فراشها وهـي تستمع بين اليقظة والمنام الى رنين جرس انهاتف وكأن جسمها كـان يعاني صراعا بين سلطان النوم ونداء الواجب ، فاستمـر الجرس يرن ويرن باسلوبه الرتيب ، وبقيت هـي تعـاني صراعا بين عالمي اليقظة والمنـام ، حتى انتبهت مشاعرهـا واحست بمسؤولية اليقظة فاندفعت نحو الهاتف وهي تلاحظ الساعة فتجدها تناهز الواحدة بعد منتصف الليل .

اذن فلا شك انها حالة مرضية مستعجلة وهكذا كان . فقد كانوا يستدعونها من الطابق السابع لوجود حالة خطيرة وما كان منها الا ان أسرعت بلبس قناعها وابرادها وخرجت مسرعة الى حيث تجد المريض .

وأمام غرفة العلاج وجدت ممرضة أخبرتها أن المريض امرأة عجوز تشكو من آلام شديدة في صدرها فأسرعت الدكتورة في الدخول حيث استقبلتها فتاة شابة جميلـة الوجه ، رشيقة القوام ، قد ارتـدت الحجاب الكـامل ،

وكأن الدكتورة قد ارتاحت لمنظرها فشدت على يدها مسلمة بحرارة وهي تقول :

خيرا ان شاء الله •

قالت الفتاة : انها جدتي يا دكتورة ، وقد انتابتها آلام قاسية منذ ساعات تعرضت خلالها لاغماء طال بضع دقائق•

قالت هذا وسارت مع الدكتورة حيث كانت الجدة ترقد شاحبة الوجه على طاولة الفحص وهي تئن من الألم •

فسارعت الدكتورة باجراء الفحوص اللازمة واستدعت معها من يعينها على ذلك وكانت تعمل بجد واندفاع وكأنها الطبيبة والقريبة في وقت واحد ، وكانت الفتاة تتجول خارج الغرفة تقطع الردهة بخطواتها القلقة جيئة وذهابا ، حتى اكتملت الفحوص وثبت أنها مصابة بذبحة قلبية وأن عليها البقاء في المستشفى الى فترة ، عند ذلك تم نقلها الى غرفة خالية اعطيت بعض المهدئات ، الشيء الذي مكنها من النوم •

وكانت الدكتورة حتى ذلك الوقت مشغولة بتعهد أمر المريضة وتهيئة وسائل الاسعاف المطلوبة لها ، ولهذا فهي لم تتمكن ان تتحدث مع الفتاة بضع كلمات قصار تتعلق بحال المريضة ، ولكنها عندما اطمأنت على راحة

المريضة ووثقت من أداء مهمتها بالشكل المطلوب التفتت نحو الفتاة التي كانت تقف في قلق الى جوار سرير جدتها وقد تندت أهدابها بالدموع ، فبدت عيناها من خلالها وكأنهما نجمتان تتلألآن من وراء الغيوم ، فشعرت أن عليها أن تقول لهذه المسكينة كلمة تبعث في نفسها الأمل ، فحاولت أن تبتسم وهي تقول :

أرجو أن يكون العارض بسيطا سيما وقد أجريت لها الاسعافات اللازمة منذ البداية •

قالت الفتاة : انني جد شاكرة لك اهتمامك بأمرها يا دكتورة •

قالت الدكتورة : ان هذا واجب علي تجاه كل مريض ، وهنا لاحظت الدكتورة أن لون الفتاة أخذ يبدو شاحبا ، فأمسكت بيدها فوجدتها باردة كالثلج فقالت لها بحنو بالغ : أجدك مرهقة جدا فلماذا لا تنامي ولو لبعض الوقت ؟ قالت الفتاة : آه نعم انني متعبة ولكن جدتي كيف أتركها وحيدة ؟

قالت الطبيبة : أليس لديها بنت سواك لتشاركك السهر؟ فترددت الفتاة لحظة ثم قالت : كلا ليس لديها بنت سواي وليس لدي ام سواها ، قالت هذا وانحدرت من عينيها قطرات من الدموع زادتها جمالا على جمال •

فتألمت الدكتورة لحالها وقالت لها وهي تشد على يدها بحنو : سوف أسهر أنا عليها بدلا عنك .

قالت : كلا ان هذا لا يمكن أن يكون ، ان عليك أن تنامي أنت فقد أجهدت نفسك بما فيه الكفاية .

فابتسمت الدكتورة وقالت : انني اعتدت على هـــذه الأتعاب ولم أعد أحس بثقلها علي ، ثم انني نمت ساعتين في بداية الليل ولهذا فأنت أحوج مني الى الرقاد ، ولكن انتظريني حتى أذهب الى غرفتي وأعود .

قالت هذا وخرجت من الغرفة دون ان تنتظر جوابا من الفتاة ، فأحست الفتاة بعد خروجها أنها كانت أمام انسانة رائعة من حقها أن تعتمد عليها وتركن اليها .

وسرعان ما عادت الدكتورة وهي تحمل بيدها كتابا ثم قالت للفتاة : حاولي أن تنامي يا عزيزتي وسوف أقضـــي وقتي مع هذا الكتاب وأرجو أن تطمئني على جدتك لأنني سوف أهتم بأمرها جدا يا ....

وسكتت الدكتورة لأنها لم تكن تعرف اسم الفتاة .

فأسرعت الفتاة تقول ورقاء، ان اسمي ورقاء يا دكتورة.

قالت الدكتورة : وان اسمي معاد يا ورقاء ، والآن هيا الى السرير الثاني فأنت مرهقة جدا ، ولم يسع ورقاء الا

أن تستثل لأنها كانت تشعر باعياء شديـــد وسرعـــان مـــا استسلمت للنوم .

أفاقت ورقاء من نومها فوجدت أنها نامت أكثر مـــن ساعة وان معادا ما زالت جالسة عند رأس جدتها تقرأ ، والجـــدة مـــا زالت مستسلمة لنوم مريـــح نتيجـــة تأثير الاوكسجين عليها ، فقامت عن السرير وتوجهت نحو معاد تحييها بلهفة وتسأل عـــن جدتها فطمأنتها معـــاد ثم ألقت الكتاب من يدها ونهضت وهي تقول :

سوف أذهب الآن لكي أستعد لصلاة الفجر ثم أحاول أن أنام بعد ذلك ساعة قبل بداية الدوام وسوف أمر عليك غدا ان شاء الله .

فشكرتها ورقاء وشدت على يدها وهي تقول : لســـت أدري كيف أشكرك يا دكتورة معاد فقد كنت بالنسبة لي يدا رحيمة ساعدتني على تجمل الصدمة وأنا وحيـــدة .

قالت معاد : انك لست وحيدة يا ورقاء ما دام الله معك، فأنا الاحظ من حجابك أنك فتاة مؤمنة والايمان كفيل بأن يشدك ويسندك خلال جميع أدوار الحياة .

فأعادت ورقاء كلمات الشكر مـــن جـــديد وودعـــت الدكتورة حتى باب الغرفة ، ثم عادت لكـــي تجلس الـــى جوار جدتها وحيث كانت تجلس معاد من قبل فلاحظت أن

معاد قد نسيت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه واسترعى انتباهها اسمه الذي بدا وكأنه غريب عليها أو مستغرب لديها، فقد كان اسم الكتاب هو : (الطب محراب للأيمان).

وتساءلت مع نفسها في تفكير ساذج قائلة : ما معنى هذا يا ترى ؟

وما هو ارتباط الطب مع الايمان ؟

أو ليس الطب علما لدواء الأجسام بينما الدين عبادة للنجاة من النار ؟

اذن فكيف يصبح الطب محرابا للايمان ؟

ودفعها فضولها الى أن تقلب صفحات هذا الكتاب . وقد اهتمت بشكل أولي بتصميم الغلاف اذ وجدته يحمل صورة ممثلة لدماغ الانسان وقد كتبت تحتها هذه الآية المباركة «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه».

واستمرت تقلب صفحات الكتاب فتقرأ فيه سطورا قصارا تسلمها الى تفكير طويل ، ولم تترك الكتاب الا خلال أداء صلاة الفجر أو قضاء حوائج جدتها حيث كانت تعود الى الكتاب لتغرق بين صفحاته بالمطالعة والتفكير .

وأشرق الصبح ودخلت الممرضة المسؤولة لاعطاء دواء المريضة ثم خرجت ، وعندما ارتفع النهار جاء

الدكتـور المختص وفـي صحبته دكتورة فأعـاد الفحص وطمأنها بكلمات قصار وخرج ومـن ورائـه الدكتورة مشكلة بمشيتها التـي تتراقص فيهـا أردافها وأكتافهـا وخصلات شعرهـا مـع رنـين كعـب حذائها مشكلـة في كل ذلك جوقة موسيقية راقصة .

واستدارت قبل أن تخرج لتؤكد على ورقاء أن لا تدع المريضة تتعرض لأية حركة ، وكأن هذه الكلمات القصار مكنت ورقاء من دراسة وجهها عن قرب فوجدته مثل لوحة بالغ النقاش فـي صبغها وتلوينها ، وسرعان مـا خطر لها الفارق بين هذا الوجه الناطق بالتكلف ووجـه الدكتورة معاد الناطق بالصفاء والنقاء .

وهنا أحست أنها تنتظر قدوم معاد بلهفة ، فهي تحس بالحاجة الى أن تسمع منها بعض كلمات التشجيع ثم أنها تريد أن تسألها عن بعض ما جاء في هذا الكتاب فألقـت نظرة على ساعتها وحدثت نفسها قائلة :

لماذا تأخرت يا ترى ؟

وعادت تجلس الى جوار الجدة التي كـانت منتبهـة ومرتاحة ، فجلست أمامها وهي سعيدة لتحسنها وقالت : لكم أنا سعيدة بتحسنك يا جدتي ليتك تعلمين كم عانيت القلق من أجلك البارحة .

قالت الجدة في كآبة : نعم لقد كنت أحس ذلك منـــك سيما وانك كنت وحيدة يا عزيزتي •

قالت ورقاء : ولكنني لم أشعـــر بالوحـــدة لوجـــود الدكتورة معاد ، فقد كانت لطيفة ورقيقة الى أبعدحـــد • تصوري أنها أصرت علي أن أنام وجلست هي الى جوارك لمدة ساعة أو أكثر •

فابتسمت الجـــدة وقالت : الحمد لله الذي أرسلها لك في ساعة المحنة يا عزيزتي •

وهنا طلبت ورقاء من جدتها أن تخلد للنوم لكي لا تجهد نفسها في الحديث، وعادت لتأخذ الكتاب تقرأ فيه مـــن جديد ، وكانت تنظر الى الساعة بين حـــين وحين وهـــي تنتظر قدوم معاد ، حتى حان وقت الظهر فأدت فريضـــة الصلاة وهي تشعر أنها تفتقـــد شيئا ، واستغربت هـــذا الشعور من نفسها وحدثت نفسها قائلة :

ما الذي يدعوني الى هذه اللهفة وما رأيتها الا ساعات قلائل ؟

وهل هي سوى دكنورة أدت واجبها تجـــاه مريضة لا أكثر ولا أقل ولعلها سوف لن تعود الينا ثانية •

وهنا أحست أن نداء من ضميرها كان يلح عليها بعنفه

قائلا : ان من حقك هذا التلهف والانتظار ، لأنها انسانة وجدت لديها الكثير من العطف والحنان ، انها لم تـؤد واجب الطبيبة فقط ولكنها أدت واجب الانسانة الكاملـة ولولاها لكنت الآن منهارة وانت في وحدتك المرة مـع جدة مريضة .

وأفاقت ورقاء من أفكارها هذه على طرقات خفيفة على الباب ، فنهضت تستقبل القادم واذا بالدكتورة معاد تدخل وقد أشرق وجهها بابتسامة رصينة .

فتقدمت ورقاء نحوها لتصافحها بحرارة لم تكن أقل مما أبدته معاد من حرارة ولهفة ثم قالت :

لقد عرفت من الدكتورة عبير تحسن حـال الجـدة ، وقد كنت مشغولة منذ الصباح اذ انني مسؤولة عن ردهة التوليد اليوم ولهذا أرجو أن لا تكوني عاتبة علي لتأخري عنك .

فارتبكت ورقاء وقالت : ولكـن كيف لي أن أعتـب عليك يا دكتورة ، ولكنني كنت في حاجة الى حضورك ولهذا كنت أنتظر .

فاكتسى وجه معاد بطابع الاهتمام اذ حسبت أن المريضة في حاجة اليها فمشت نحو الجدة وهي تقول :
كنت في حاجة الي ؟

ماذا ؟

هل تشكو جدتك من شيء ؟

فزاد ارتباك ورقاء وابتسمت في بـــراءة وهي تقول :

كلا ان جدتي بخير والحمد لله ولكنني أنا التِـــي كنت في حاجة اليك فهل تسمحين بالجلوس ؟

فعادت الابتسامة الى وجه معاد وقالت وهـــي تجلس : لقد جئت في هذا الوقت لكي أجلس معك الى فترة يـــا ورقاء ولكي أرى اذا كنت متعبة أو في حاجة الى النوم ٠

قالت ورقاء : كلا انني لا أشعر بالحاجة الى النوم بـــل أنا في حاجة الى اليقظة الكاملة ولهذا اريد أن اسألك عن شيء قرأته في هذا الكتاب ، ثم أخذت الكتاب بيدهـــا وجلست الى جوار معاد ، فقالت معاد :

آه لقد نسيت هذا الكتاب هنا ، لعلك قرأت فيه يـــا ورقاء ؟

قالت ورقاء : نعم وقد أسلمني الى الكثير من التفكير،

قالت معاد : لماذا ؟

قالت : لانني لم آكن أحسب أن هناك ربطا بين الطب والايمان ، فالطب حسبما أعرف عنه : علم يتناول جسم

الانسان ، والايمان عبادة لا أكثر ولا أقل •

قالت معاد : ولكن العلم هو الذي يدعو الى الايمان يا ورقاء ، وكلما اتسعت أمام الانسان معارفه العلمية تصاعد لديه مستوى ايمانه بالخالق • قالت ورقاء : وكيف ؟

قالت معاد : ان كل من يجهل شيئا لا يثمنه يا ورقاء ، فأنت الآن مثلا لو نظرت الى هذه المدفأة الكهربائية لما تمكنت أن تقدري مدى ما توخاه الصانع من دقة وعناية في تكوينها ، ولما خمنت ما يتطلبه ذلك من معرفة مسبقة وتجارب متعددة خلافا لمن يعلم شيا ولو يسيرا عن أدواتها، وأجهزتها ، وتركيبها المتقن الرقيق •

وهنا لاحظت معاد شبح ابتسامة يلوح على وجه ورقاء وهي تحاول أن تخفيها تأدبا أمام الكلمات ، فسكتت لحظة ثم خطر لها خاطر فسألت ورقاء قائلة :

هل أنت طالبة يا ورقاء ؟

قالت ورقاء : نعم انني ما زلت في السنة الأخيرة من الجامعة •

قالت ورقاء هذا ولم تذكر اسم الكلية التـي تدرس فيها فأردفت معاد تقول :

انك في كلية الهندسة فرع الميكانيك أليس كذلك ؟

فاستغربت ورقاء وقالت : نعم ولكن من أين عرفـت هذا ؟

قالت : من شبح الابتسامة التي لاحت على شفتيـك عند حديثي معك عن المدفأة ، فقد عرفت أن المثل لم يكن لينطبق عليك بالذات لأنك تعرفين عن صنعها بعض الشيء ولكنك لم تحاولي أن تردي علي ، وهذا يدل على منتهى الذوق منك وحسن الاستماع •

قالت ورقاء : ولكن مثلك كان مطابقا لعين الحقيقة يا معاد سواء انطبق علي أو لم ينطبق ، ولهذا أرجـو أن تستمري بالحديث •

قالـت معـاد : نعـم ، ولكـن العلـم بالشـيء ولو علما اجماليا من حقه أن يضاعف تثمين ذلك الشـيء نجد أن العلم على مختلف صوره وأشكاله يقرب أفكار العلماء الى الايمان بالله ، وبما أن على الطب مـن أهـم العلوم وأدقها فانه بالنسبة للعالم المنصف أوضح طريـق للايمان •

قالت ورقاء : هل تسمحين لي بمزيد من التوضيح فأنا

لا أعرف عن ديني سوى بعض التزاماته التقليدية ، مثل الصوم ، والصلاة ، والحجاب ، وطالما تعرضت للعديـد من المواقف الحرجة المحرجة بسبب ذلك اذ أن حجابـي يوحي بأنني أعرف عن الدين الشيء الكثير ...

قالت الدكتورة : انني أرحب بكل سؤال يا ورقاء .

قالت ورقاء : حتى ولو كان سطحيا يا دكتورة ؟

قالت معاد : انني مستعدة للجواب عن كل سؤال مهما كان ولكنني أرجو أن تتركي كلمة الدكتورة جانبا ما دام حديثنا حديثا أخويا تجمعنا فيه كلمة الايمان، ناديني بمعاد وهذا يكفي ، ثم هاتي ما لديك بعد ذلك .

فابتسمت ورقاء وقالت : أريد أن أعرف لماذا اختار المؤلف رسم الدماغ بالذات لكي يجعله على الغلاف ؟

قالت معاد : لأن الدماغ يا ورقاء هو أهم جزء من أجزاء جسم الانسان ، وهو بمثابة الحاكم العامل في مختلف أجزاء الجسم وأعصابه وخلاياه ، وجسم الانسان بجميع ما فيه من خلايا عصبية خاضع في طاعة الدماغ ، والدماغ ، هذا الدماغ الصغير يحتوي على ألف مليون خلية عصبية ! .

وهنا رددت ورقاء قائلة في تعجب : ألف مليون خلية عصبية ؟!

قالت معاد : نعم ، ولكل من هذه الخلايا وظيفة خاصة وعمل محدد لا تتجاوزه ولا تتعداه ، ولكنها في الوقت نفسه مترابطة في العمل ، تستند كل خلية منها الى الخلية الاخرى لكي تساعدها في النجاح ، واذا تعطل أي منها كان لعطله أسوأ النتائج .

وهنا سكتت معاد .

قالت ورقاء : الحقيقة انني لم أكن أحسب أن دماغ الانسان على هذا المستوى من الدقة .

قالت معاد : ان أحد العلماء وهو (جودسون هريك) قال عن الدماغ خلال محاضرة ألقاها في معهد التاريخ بنيويورك عام (١٩٥٧) قال : « لو أننا جمعنا كل أجهزة العالم من التليفون ، والتلغراف ، والرادار ، والتلفزيون ثم حاولنا أن نصغر هذه الكومة الهائلة من الأجهزة المعقدة حتى استطعنا وبمجهود جبار أن نوصلها الى حجم مثل حجم الدماغ فانها لا تبلغ في تعقيدها مثل الدماغ » ..

وهنا قالت ورقاء : لطيف أن يحمل الانسان في رأسه هذا الجهاز المتقن الدقيق ، ولكن أليس من المؤسف أننا لا نعرف عن حقيقة اجسامنا شيئا يا معاد ؟

قالت معاد : ان الحديث عن جسم الانسان طويل جدا يا ورقاء .

قالت ورقاء : وكيف ذلك يـا معاد ؟ ألا يمكنـك ان تعطيني بعض الأمثلة ؟

قالت معاد : مثلا هل تعلمين أن أعصاب الانسان متصلة مع جسم الانسان بصورة كاملة ؟ ولكن هذا الاتصـال على شكلين :

فهناك أعصاب تسمى بالاعصاب الارادية ، وهي التي تسيطر على مجموعة مخصوصة من العضلات التي فـي الجسم وتسمى بالعضلات المخططة والتي منهـا عضلات اليد ، والرجل ، واللسان ، وهي العضلات التي لا يمكن لها أن تعمل بدون ارادة .

وهنـاك أيضـا نـوع ثـان مـن العضـلات ليس للارادة أي دخل فيهـا وانمـا هـي محكومـة لجملـة عصبيـة خـاصة ومـن تلـك العضلات أجهزة الهضم ، والتنفس ، وعمـل القلـب ، وهنـا يبدو جـانب مـن جوانب حكمة الخالق في التصميم ، فلو كـانت جميـع الاجهزة خاضعة لعمل الارادة لما أمكن للانسان أن يغفـل عنها لحظة حتى وفي حال النوم والا لتوقف القلب عـن الحركة وتعطل جهاز الهضم ، والتنفس عن العمل ، وكذلك الحال بالنسبة للعضلات المخططة التي تخضع في عملهـا للأعصاب الارادية، فهي لو لم تكن خاضعة للارادة ومنشدة

اليها ، ولو لم تكن غير قادرة على العمل بدونها لاستمرت بعملها كما استمرت العضلات الغير خاضعة للارادة •

قالت ورقاء : وماذا كان يحدث اذن ؟

قالت معاد : لاستمر الانسان يمشي ويمشي ويتكلم ما دام حيا وما دام قلبه ينبض بالحياة •

وكانت ورقاء تستمع في اهتمام بالغ ، وحينما سكتت بادرت تستزيدها قائلة ان حديثك شيق جدا يا معاد •

قالت معاد : يمكنك أن تقرئي هذا الكتاب لتعرفي الكثير عن أسرار جسمك يا ورقاء •

فسكتت ورقاء برهة ثم قالت في خجل : ولكنني لا أرغب في المطالعة يا معاد ، انني أحب أن أسمع من أن أقرأ •

قالت معاد : ولكن السماع وحده لا يكفي ولا يغني يا ورقاء فما لم يعتمد الانسان على ذهنه في فهم ما يريد لما تفهم ما يكفيه ، فالانسان الذي يسمع أكثر مما يقرأ يصبح اتكاليا في فهمه للامور ، لأنه يستقبل الحقائق مشروحة وموضحة ولا يكلف نفسه مشقة مطالعتها واستيعابها شرحا وتوضيحا وما دام الفهم معتمدا على

الآخرين كانت المعلومات محدودة لأن السماع مهما كان لا يبلغ الى مستوى القراءة في الكم والكيف .

وهنا تململت الجدة على فراشها فقامتا اليها معا ، وانحنت عليها معاد تسأل عن راحتها فابتسمت الجدة وشكرتها على موقفها منها في الليلة الماضية وقالت لها :

انني دعوت لك كثيرا لموقفك البارحة مع ورقاء وسوف أدعو لك ما دمت حية .

قالت معاد : انني أشكرك جدا وأرجو لك العمر الطويل .

قالت الجدة : ولكن ما هو اسمك يا ابنتي ؟

قالت معاد : ان اسمي معاد .

فسكتت الجدة لحظة ثم قالت : لقد سبق أن سمعت بمثل هذا الاسم من قبل ولكن ما هو اسم أبوك يا معاد!

وهناك لاحظت ورقاء أن معادا قد تجاهلت السؤال حيث قالت : انني سوف أزورك في كل يوم يا خالة وأرجو أن تتقدم صحتك بسرعة بفضل الله وبفضل عناية ورقاء .

فضحكت ورقاء وهي تقول : وبفضل الدكتورة

معاد أيضا ، ثم عادتا للجلوس ، وكانت ورقـاء تود لـو استأنفت معاد حديثها ولكن خشيت أن تطلب منها ذلـك فتثقل عليها فيه ، ولهذا مرت عليهما فترة سكوت تتخللـه بعض الكلمات وعندما أرادت معاد أن تذهب طلبت منهـا ورقاء أن تترك الكتاب عندها لتقرأ فيه .

★ ★ ★

استمرت معاد تزور المريضة في كل يوم الشيء الذي شد أواصر العلاقة بينها وبين ورقاء ، سيما وأن ورقاء كانت تستفيد منها فكريا فيضاعف ذلك من اعجابها وحبها لمعاد، ولكن فجأة مر يوم ويومان دون أن تزور معاد غرفة المريضة جدة ورقاء ، وفي اليوم الثالث عندما مرت عليهم الدكتورة عبير سألتها ورقاء هل ان الدكتورة معاد مجازة منذ يومين؟

قالت : كلا ولكنها مريضة !

فندت عن ورقاء آهة تألم وقالت :

مريضة ؟ ولكن أين هي في البيت أم فـي المستشفـى ؟

قالت : انها في المستشفى ثم انصرفت لكي لا تفسـح الطريق لسؤال جديد .

وبقيت ورقاء في قلق حائرة فهي تود أن تذهب الـى معاد ولكنها لا تعرف كيف ؟ وهل يمكن لها ذلك ؟

وبعد ساعة دخلت الممرضة المسؤولة فسألتها عن معاد فقالت : انها مريضة منذ يومين •

قالت : وهل يمكن عيادتها في غرفتها ؟

قالت الممرضة : انها ليست في غرفتها •

قالت ورقاء : أين هي اذن ؟

قالت : انها نقلت الى الغرفة المقابلة لغرفتكم من الجهة الثانية •

فردت ورقاء في فزع قائلة : آه انها مريضة جدا اذا !!

فردت الممرضة : انها مصابة بانفلونزا حادة ولهذا ومن أجل صحتها ووقاية لقسم الطبيبات من العدوى رجح الطبيب نقلها الى غرفة العلاج •

فأطرقت ورقاء تفكر في مرض معاد بألم ثم قالت : ليتني أتمكن أن أذهب لعيادتها •

قالت الممرضة : وماذا يمنعك من الذهاب ؟

قالت : جدتي كيف أتركها وأذهب •

قالت الممرضة : ان جدتك بخير وسوف أمر عليها أنا خلال فترة غيابك عنها •

قالت ورقاء : ولكن متى يمكنك الحضور ؟

قالت : بعد الثانية عشر ظهرا •

فشكرتها ورقاء وبقيت تنتظر ساعات بعد الظهر على لهفة وقلق حتى حان الوقت فتوجهت نحو غرفةمعاد وطرقت البابهدوء خشية أنتكون المريضةنائمة، وفوجئت أن وجدت شابا يفتح لها الباب ، فارتبكت وحاولت أن تتراجع ولكن مظهر الشاب الوقور بعث في نفسها شيئا من الثقة، فسلمت ثم قالت : كيف حال الدكتورة معاد ؟

فأفسح الشاب لها الطريق قائلا : تفضلي اليها فهي مستيقظة •

فدخلت ورقاء تمشي بخطوات مرتبكة ولاحظت أن الشاب خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه فقالت في نفسها : لا شك أنه الطبيب، ثم مشت الى حيث ترقد معاد على السرير ، فانحنت نحوها تحييها بعطف وتسأل عن صحتها بلهفة ، فوجدت الحمى لديها مرتفعة وسمعت أنينا خافتا يصدر عنها ، الشيء الذي آلمها جدا فنادتها بصوت خافت قائلة :

دكتورة معاد ! دكتورة معاد ! كيف أنت يا اختاه ؟ فحاولت معاد أن تبتسم وأجابت بصوت واهن :

أرجو أن أكون بخير ، كيف هي جدتك يا ورقاء ؟
قالت : انها بخير تسلم عليك وتدعو لك بالصحـــة .

ثم جلست ورقاء الى جوار المريضة ولاحظت أن معادا مستغرقة في بحران من الحمى ، وأن غدائر شعرها مبعثرة على الوسادة مع حمرة قانية تصبغ وجهها الجميل الذي كانت تراه بدون حجاب لأول مرة ، فودت لو تمكنت من مساعدتها بأي ثمن .

ومضت الدقائق طويلة ومتعبة وهـــي جالسة الى جوار المريضة يعز عليها أن تذهب وتتركها وحيدة ، ومن نـــاحية ثانية كانت تحس بالقلق من أجل جدتها المريضة ولا تتمكن أن تتأخر عنها أكثر من هذا .

ثم فتحت معاد عينها ورأت ورقاء ما زالت الى جوارها فقالت لها بصوت متقطع : لماذا أنت ما زلت هنا يا ورقاء؟ عليك أن تعودي الى جدتك المريضة يا عزيزتي .

قالت ورقاء : ولكن كيف اتركك وحدك يا معـــاد ؟
قالت معاد : انني لست وحدي يا ورقاء نادي لي أخي اذا خرجت .

قالت ورقاء : واين أجد أخاك يا معاد ؟

قالت : أحبسه في غرفة الاستعلامات ، فظهرت الحيرة على ورقاء وقالت :

ولكن ما هو اسمه ؟ اقصد كيف أتمكن أن اعرفه فأستدعيه ؟

فابتسمت معاد رغم حالها وقالت : ان اسمه سناد وهو الذي فتح لك الباب •

قالت ورقاء : آه لقد حسبت أنه الطبيب •

قالت معاد : صحيح أنه الطبيب كما خمنت ولكنه أخي في الوقت نفسه ولولا ذلك لما كنت أمامه هكذا •

قالت هذا وأشارت الى خصلات شعرها المبعثرة •

قالت ورقاء : لقد حسبته طبيبا غريبا حين رأيته قد خرج ولم يعد •

قالت معاد : لقد خشي أن يضايقك بوجوده ولهذا خرج •

وهنا قامت ورقاء وقبلت معاد متمنية لها الشفاء وخرجت من الغرفة متوجهة الى غرفة الاستعلامات، وكانت تشعر بالحراجة لهذه المهمة ولكنها وجدته أمام الغرفة وقد لاحظ انصرافها دون أن تقول له شيئا وبذلك تخلصت مما كانت تستشعره من احراج ،

وذهبت الى جدتها مسرعة فوجدتها ما زالت نائمة فجلست الى جوارها تقرأ ولم تطل مع الجدة سنة النوم اذ فتحت عينها ونظرت الى ورقاء فسألتها ورقاء عن راحتها فردت قائلة بارتياح :

اني بخير ولكن كيف وجدت الدكتورة معاد ؟

قالت ورقاء بألم : انها مريضة جدا يا جدتي •

قالت الجدة : شافاها الله وعافاها ، ولكن من كان معها ؟

قالت ورقاء : يبدو أن أخاها طبيب وكان الى جوارها حين ذهبت ولكنه خرج عند دخولي •

فقالت الجدة : من هذا يبدو أنه انسان مهذب •

وفي صبيحة اليوم الثاني ذهبت ورقاء الى عيادة معاد من جديد فوجدتها أحسن حالا مما كانت عليه وقد رحبت بها وشكرت لها زيارتها الماضية فقالت ورقاء :

لقد عز علي جدا أن أراك في تلك الحالة سيما عندما تحسست جبينك فوجدته يلتهب من الحرارة ، فقد أحسست بأنني أشاركك الألم ولكن بشكل روحي •

فابتسمت معاد وقالت : يبدو أن أعصاب الحس لديك مرهفة جدا يا ورقاء ؟

فضحكت ورقاء وقالت : انه أمر طبيعي وبسيط ولا يحتاج الى مزيد في الحساسية •

قالت معاد : صحيح أنه أمر طبيعي ولكنه ليس بالأمر البسيط كما تتصورين ، فان عملية الاحساس وسرعتها أمر يسبقه العديد من العمليات داخل الجسم •

فاستغربت ورقاء وقالت : العديد من العمليات وكيف ؟

قالت معاد : هل تريدين أن أشرح لك ذلك بالتفصيل أم باختصار ؟

قالت ورقاء : كما تحبين يا معاد •

قالت معاد : تنتشر على مستوى سطح الجلد شبكة هائلة يا ورقاء ومهمتها هي نقل الأخبار التي تصلها من مختلف طرق الحس ، وتنتهي جميع هذه الألياف العصبية التي تتشكل منها الشبكة تنتهي بجسيمات خاصة ينفرد كل منها بنقل حس معين محدد ، فهناك مثلا جسيمات تنقل الحر ، وجسيمات تنقل البرد ، واخرى تحس الألم ، وهكذا نجد أن كل جسيمة من هذه الجسيمات تنفرد بمهمة خاصة لا تؤديها سواها •

قالت ورقاء : وما هو عدد هذه الجسيمات يا معاد ؟

قالت معاد : انها تتصاعد اعداد هذه الجسيمات في سطح الجلد الى اعداد هائلة .

قالت ورقاء : فما هو عدد أجهزة احساس الألم مثلا ؟

قالت معاد : هناك (٣ ــ ٥) ملايين جهاز حساس للألم و (٣٠٠،٠٠٠) جهاز حساس للحر و (٥٠٠،٠٠٠) جهاز حساس للمس والضغط

قالت ورقاء : وما هي هذه الأجهزة يا معاد ؟

قالت معاد : مهمتها هي نقل التنبيهات عن طريق الأعصاب الحسية حتى توصلها الى المنطقة الخلفية من النخاع الشوكي حيث تبلغ الأخبار الى الخلايا ، وعند ذلك تقوم الخلايا بالاتصال بالمنطقة الأمامية من النخاع الشوكي حيث ترقد هناك مفاتيح السيطرة على العضلات ، ولهذا تجدين أن اليد اذا لامست الحرارة ترتد عنها بسرعة تبلغ جزء من مائة من الثانية ، هذه السرعة الهائلة التي تمر بنا أو نمر بها دون أن نعلم أي تخطيط هائل جبار سبق هذه العملية البسيطة ودون أن نستشعر الصغار أمام عظمة الخالق المبدع المدبر .

كانت معاد تتحدث وورقاء تستمع اليها بانجذاب وقد

جلست على الكرسي الذي أمامها مصغية بكل انتبـاه ، وودت لو أن معادا بقيت تتكلم أكثر وعندما سكتت أرادت أن تطلب منها الاستمرار ولكنها خشيت أن ترهق صحتها فبقيت ساكتة تنظر اليها في اعجاب واكبار ثـم قالت : ان حديثك شيق يا معاد فانني محرومة ممن يزودني بالمعلومات الدينية سيما عن اثبات وجود الخالق فليس لدي من يعينني على مجابهة الشبه والتشكيكات مع كثرة ما يواجهني منها في مختلف المناسبات ، وليتني كنت مثلك لكي أفهم مـا تفهمين وأعرف من أمر ديني وخالقي ما تعرفين ، لقد كنت أتمنى أن أدخل الكلية الطبية ولكن درجاتي لم تساعدنـي على ذلك •

فابتسمت معـاد وقالت : ان معرفتـي لا تستنـد الى الكلية الطبية فلو لم أكن أعرف لما استفدت شيئا مما قرأت هنا •

قالت ورقاء : اذن فأنت كنت تعرفين المزيد عـن دينك قبل أن تدخلي الكلية ؟

قالت : نعـم ، لأن أخـي كـان يوجهنـي ويدفعني الـى القراءة والمطالعة منـذ الطفولة ، وقـد ساعدنـي على تفهم الكثير مما كان يعسر علي ، ولم تعلم ورقاء لماذا

خطر لها أن تسأل قائلة :

أي اخواتك هذا الذي تعهدك بالتربية والتوجيه ؟

فابتسمت معـاد وقالت : ليس لـي الا أخ واحد وهو الذي ما زال يتعهدني بكل شيء ، حتـى بالتمريض اذا مرضت ، انه كل شيء بالنسبة لي .

قالت ورقاء : أدامه الله لك وأدامك له يا أختاه .

قالت معاد : تصوري أنه عطل عيادته من أجلي خـلال أيام شدة حماي !

وهنا قالت ورقاء : اذن فهو ليس معك هنا فـي نفس المستشفى ؟

قالت : كـلا فهو قـد أكمل مـا عليه وفتح له عيادة خاصة ، عند هذا لاحظت ورقاء أن مدة غيابها عن جدتها قد طالت أكثر مما ينبغي فنهضت لكي تودع معادا وهـي تقول : يعز علي أن أتركك وحيدة ولكن علي أن أذهـب من أجل جدتي .

قالت معاد : لا عليك يا عزيزتي فان سنادا يأتي بعد قليل ان شاء الله .

قالت ورقاء : وسوف أزورك غدا أيضا .

قالت معاد : سوف أعود صباح غد الى غرفتي فتفضلي الى هناك •

قالت معاد : ولكنني سوف اتعبك بالأسئلة يا معاد •

قالت معاد : ان تعبك راحة يا ورقاء ، فتعالي الي متى أحببت وستجدينني سعيدة بزيارتك يا أختاه •

فضحكت ورقاء وقالت : اذن فأستودعك الله الى لقاء غد ان شاء الله •



وفي عصر اليوم الثاني ذهبت ورقاء الى عيادة معاد في غرفتها الخاصة بقسم الطبيبات ، فاستقبلتها معاد مرحبة •

فقالت ورقاء : كيف أنت اليوم يا معاد ومتى سوف تمارسين أعمالك لكي تعودي الينا من جديد ؟

فقالت معاد : انني اليوم بخير ولكنني أشعر بشيء من الألم في منطقة الطحال وأخشى أن يكون ذلك من تأثير الأنفلونزا ولهذا فأنا أنتظر نتيجة التحليل •

قالت ورقاء : أرجو أن يكون الطحال سالما ، ثم انني أتصور أن آلام الطحال ليست مهمة جدا •

فابتسمت معاد وقالت : ولكن الطحال منطقة مهمة جدا في جهاز جسم الانسان لآن الله عز وجل لم يخلق عضوا من أعضاء جسم الانسان دون أن يكون له أكبر الأثر في سلامة الجسم .

قالت ورقاء : فما هو أثر الطحال يا ترى ؟ وما هي مهمته التي جعله الله تبارك وتعالى أمينا على ادائها ؟

قالت معاد : انه مقبرة سيارة مع الجسم تستقبل جثث الكريات الحمر عندما ينتهي عمرها الذي لا يطول عادة أكثر من شهرين واللطيف في عملية الدفن هذه أن ذرة الحديد التي تنقل الكريات حين موتها الى الطحال تدفنها هناك ثم تعود خالية .

قالت ورقاء : ولكن لماذا تعود هي اذن ؟

قالت معاد : لأن الجسم يستفيد منها في عملية بناء الكريات الحمر الجديدة .

قالت ورقاء : ولكن هل ان ذرة الحديد هذه هي التي تصنع الكريات الحمر ؟

قالت معاد : كلا انها عنصر يستفاد منه في

صنع الكريات ، أما المصنع الرئيسي للكريات الحمر وحتى البيض منها فهو النخاع الموجود في باطن العظام ، وهكذا ترين عظمة هذا المصنع الهائل الذي يسمى بجسم الانسان وكيف أن كل عضو منه ينفرد بمهمة خاصة وعمل معين •

قالت ورقاء : حدثيني عن ذلك يا معاد •

قالت معاد : سوف أعطيك مثلا عن ذلك ، وهو أن جهاز الدوران الذي ينقل الغذاء والأوكسجين الى الأنسجة العطشى له مهمة ثانية في الوقت نفسه وهي ارجاع بقايا الاحتراق ونفايات الغذاء •

قالت ورقاء : اذن فهو يقوم بمهمة المعبد للطرق والمسهل للمواصلات بين الأمعاء ؟

قالت معاد : نعم انه كذلك ، وهكذا أيضا جهاز التنفس الذي نعيش معه العمر دون أن نلتفت الى عظمة خالقه المخطط والموجه له ، فهو يستورد الغازات الضرورية للبدن مثل الأوكسجين ويطرح غاز الفحم . وهذه عملية تنقية للدم من كل ما لعله يعلق به من أكدار ، يستورد ما يحتاجه البدن ، ويصدر

مالا حاجة له به ، انها الدقة الهائلة في الخلق والرحمة المعطاء في تدبير شؤون الحياة •

قالت ورقاء : أزيديني بالله عليك يا معاد •

قالت معاد : اننا نأكل كل ما يلذ لنا ، ونشرب كل ما يطيب لنا شربه غافلين عما هيأته لنا الرحمة الالهية من ممون مخلص أمين ينقل الى الأمعاء النشويات ، والبروتينات ، والدسم ، والماء ، والاملاح المعدنية ، والفيتامينات ، وكل هذه هي مما يحتاجه جسم الانسان ، ومن ناحية ثانية لا يغفل هذا الممون الأمين عن القاء الفضلات التي لا يحتاجها البدن خارج الحدود •

قالت ورقاء : وما هو هذا الممون يا معاد ؟

قالت معاد : ليس هذا الممون الأمين سوى الجهاز الهضمي لدى الانسان •

وكانت ورقاء تستمع الى معاد باهتمام بالغ فلما سكتت أردفت قائلة : والكبد ما هي وظيفته اذن ؟

قالت معاد : الكبد هو مركز الجمارك العام في جسم الانسان •

قالت ورقاء : وكيف ؟

قالت : انه ينقي كل ما يدخل الى البدن عن الطريق الهضمي

فلا يسمح الا بمرور ما هو مرغوب فيه وصالح للجسم ، انه من خطوط الدفاع المهمة التي خلقها الله تبارك وتعالى للدفاع عن سلامة هذا الجسم القاصر الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

وعند ذلك سكتت معاد وكأنها أرادت تبديل مجرى الحديث ، فأعطت لورقاء فترة سكوت وتفكر ثم قالت : والآن حدثيني عن صحة جدتك يا ورقاء .

فانتبهت ورقاء من استغراقتها الفكرية وقالت انها أحسن حالا والحمد لله . ولهذا تمكنت من تركها وأتيت اليك وقد ألحت علي أن أعود الى الدوام في الاسبوع القادم ولكنني ما زلت مترددة في موضوع الدوام .

قالت معاد : لقد طال انقطاعك عن الدراسة يا ورقاء وأنا أيضا أرجح عودتك الى الدوام وسوف أحاول أن أمر آنا عليها خلال غيابك فليس من الصالح تخلفك عن الدراسة أكثر من هذا .

قالت ورقاء : ان جدتي المسكينة وفرت لي جميع أسباب الراحة ، وبذلت لي المزيد من الحب والحنان ولكنني ما زلت أشعر بالوحدة والغربة في أمثال هذه الحالات لأنني البنت الوحيدة لابنها الوحيد الذي توفي شابا وكان عمري حين وفاته سنة واحدة ، أما والدتي فقد كانت قد توفيت على أثر ولادتي مباشرة .

قالت معاد : اذن فأنت بدون اخت ، وانا بدون أخت ، فلتكن كل منا اختا للثانية اذا وافقت على ذلك .

فأشرق وجه ورقاء وقالت في لهفة : أتراك جادة فيما تقولين ؟ هل تقبلين اخوتي يا معاد ؟

قالت معاد : وأكون سعيدة بها فهل توافقين أنت ؟

قالت ورقاء : نعم وكيف لا !

قالت معاد : اذن فقد اتفقنا يا اختاه والآن ان عندي لك كتابا حبذا لو قرأتيه .

قالت ورقاء : الحقيقة انني أصبحت افكر جديا بالمطالعة ولكنني لم اجربها لحد الآن .

قالت معاد : اذن جربي مع هذا الكتاب ، ثم أعطتها كتابا قرأت ورقاء اسمه فوجدته (التكامل في الاسلام) ولاحظت أنه الجزء السابع منه ، فأخذته شاكرة ثم ودعت معاد وذهبت الى جدتها .

ومضت الأيام ، وكانت معاد قد عادت الى عملها واستمرت تمر على ورقاء في كل يوم وتعنى بجدتها حال ذهابها الى الكلية وكانت ورقاء قد قرأت كتاب التكامل في الاسلام وطلبت الأجزاء الباقية منه ، لأنها شعرت ولأول مرة بالرغبة في استيعاب الكتاب ، فكانت تختلس الوقت

بين دوامها وتمريض جدتها لتقرأ من الكتاب بعض المواضيع وهي في كل ذلك تسأل معاد عما يخطر لها حول ما تقرأ ، ولهذا أخذت تشعر بأنها أصبحت مشدودة الى معاد فكريا، وروحيا ، وأن من العسير عليها أن تبتعد عنها بعد الآن •

وفي يوم من الأيام كانت ورقاء تجلس أمام معاد تستمع اليها وهي تتحدث عن عظمة الخالق التي تظهر بعض آثارها في دقة خلق الانسان فقالت لها :

هل حقا يا معاد أن خلايا جسم الانسان تتغير وتتبدل ؟

قالت معاد : نعم ان الانسان يتغير بشكل مستمر الأخلاط ، والخلايا ، والكريات ، والشحوم، والبروتينات ، والماء ، الى آخر ما في جسم الانسان من خلايا ، وحتى بالنسبة للخلايا العصبية فانها تتغير وتتبدل أيضا ، وعلى العموم فان الجسم كله يتجدد كل فترة قد تقدر ببضع سنين ولا تزيد بحال على عشر سنين •

وهنا قالت ورقاء مستغربة : حتى الخلايا العصبية تتبدل أيضا ؟ ولكن كيف أليست الذاكرة ترتبط بالخلايا العصبية ؟ فاذا تبدلت كان معنى ذلك أن الانسان يفقد ذاكرته وكل معلوماته السابقة ؟

قالت معاد : وهذا هو جانب مدهش من جوانب الخلق ونحن عن هذا الطريق نستدل على أن الذاكرة والذهنية الانسانية عموما ليست ظاهرة مادية ولا يمكن تفسيرها كما يقول الماديون وانما هي ظاهرة روحية مجردة عن المادة ولا تخضع لقوانينها من التبدل والتغير والتحلل ، وهكذا تلاحظين أن الذاكرة لو كانت مجرد ظاهرة مادية في الخلايا العصبية ومرتبطة بها لنسي الانسان كل شيء بعد مضي فترة من الزمن تبعا لتغير تلك الخلايا العصبية ، وأصبح عليه أن يتعلم حتى اسمه واسم أبيه من جديد ، في الوقت الذي نجد أن الانسان العادي يجمع في كل يوم من الصور التي يراها فقط مقدار نصف مليون صورة، تجتمع كلها في مستودعات الذاكرة العظيمة ، ومعنى ذلك أن ما يقرب من عشرة مليارات من الصور تختزن في مستودعات الذاكرة خلال متوسط حياة الانسان العادي ، هذا بالاضافة الى المسموعات ، وغيرها مما يلمس ويحس .

وكانت ورقاء تستمع بانجذاب وعندما سكتت معاد قالت : انها أرقام هائلة لا يكاد يتصورها الانسان .

قالت معاد : نعم انها أرقام هائلة وقد قدر البعض أن ما تخزنه الذاكرة يتسع الى تسعين مليون مجلد زاخر

بالمعلومات ، فردت ورقاء تقول : تسعين مليون مجلد !!

قالت معاد : نعم ولك أن تعرفي بعد هذا دقـة الخلق وحكمة الخالق •

قالت ورقاء : ألا يمكن لنا اثبات وجود الخالق للمنكرين عن هذا الطريق يا معاد ؟

أليس في خلق الكون وما فيه حجة بالغة لنا قبالهم يا أختاه ؟

فابتسمت معاد ثم قالت : انها حجج بالغة يا ورقاء ولكن فيهم من اذا أردنا أن نثبت وجود الله لـه عـن طريـق الاستشهاد بخلق الكون وما فيه قال انه يشك بوجـود الكون ولا يعترف به كموجود حقيقي لـم يصوره الوهم والخيال !

قالت ورقاء : ومن هم هؤلاء يا معاد ؟

قالت : انهم المشككون الذين ينكرون وجود كل شيء حتى أنفسهم ، انهم يتحدثون ويفكرون بشكل يدعـو الانسان الى فقدان الشعور بقيمة ما حوله ولهذا فهـو يعيش حياة الوهم والخيال ما دام لا يجد فـي الكون الا

وهما وخيالا .

قالت ورقاء : وما هو موقفنا من هؤلاء يا معاد ؟

قالت : اننا تتمكن أن ندحض شبههم ببساطة .

فتساءلت ورقاء في لهفة : ولكن كيف ؟

قالت معاد : ان المشككين يقولون أن جميع القضايا مشكوك فيها أليس كذلك ؟

قالت ورقاء : نعم .

قالت معاد : اذن دعينا نعرف ماذا يقولون عن هذه القضية نفسها القائلة ان كل القضايا مشكوك فيها فهل يشكون فيها أو لا يشكون ؟

قالت ورقاء : طبعا انهم لا يشكون فيها لأنهم يؤكدونها.

قالت معاد : اذا كانوا لا يشكون فيها فقد اعترفوا اذن بأن بعض القضايا غير مشكوك فيها وهذا يناقض مبدأهم في الشك واذا كانوا يشكون في هذه القضية أيضا فهذا تنازل منهم عن مبدئهم ويعتبر تخليا عن تبني مبدأ الشك.

قالت ورقاء : هذا نقاش رائع فزيديني بالله عليك .

قالت معاد : يمكنك يا اختي أن تسأليهم منذ البدء هل تفترضون ان موقفنا الذي يتحلى باليقين يتعارض مع

موقفكم الذي يتسم بالشك في كل شيء أو لا ترون تعارضا بين الموقفين فان سلمتم بالتعارض والتناقض بينهما فهذا يعني انكم تسلمون بأن النقيضين لا يمكن أن يجتمعا ، وهذه اذن حقيقة لم يرق اليها شككم وبذلك يثبت أن بعض الحقائق يجب التسليم بها ، واذا لم تسلموا بوجود أي استحالة في أن يكون الموقفان معا على صواب فلماذا تعارضوننا وتعتبروننا في ايماننا مخطئين ؟

أليست هذه الحجة رائعة يا ورقاء ؟

قالت ورقاء : نعم انها رائعة ومنطقية تماما .

قالت معاد : وان هناك بعض الحجج الاخرى لا يسع الوقت لذكرها الآن ولهذا سوف أؤجلها الى اللقاء القادم ان شاء الله .

قالت ورقاء : انني اقدر ظروفك ومسؤولياتك يا معاد وأرجو ألا يطول انتظاري للقاء الثاني فأنا جد مشوقة الى تكملة الحديث .

فضحكت معاد وقالت : انه لن يتعدى ظهر يوم غد ان شاء الله يا ورقاء وقد أتيت لك بكتاب أرجو أن تطالعي فيه خلال هذه

الفترة ثم ناولتها الكتاب وذهبت الى دورتها المعتادة على المرضى •

وفي عصر اليوم الثانـي جلست ورقاء تنتظر حضور معاد وأمسكت بيدها كتابا تقرأ فيه فترة ثم تستسلم للتفكير فترة أخرى ، حتى أتت معاد ، فاستقبلتها بحرارة وجلست أمامها تنتظر تكملة الحديث ، ولما وجدت أن معادا لا تريد أن تتطرق الى حديث أمس قالت لها : أكملي حديثك عن أفكار المشككين •

فابتسمت معـاد وقالت : أراك مهتمـة جـدا بهـذا الموضوع ؟

قالت ورقاء : نعم لأنني قرأت وسمعت الكثير عنه •

قالت معاد : نحن تتمكن ان نقول لهم متسائلين : انكم آمنتم بمبدأ الشك هذا من خلال برهان أم لا ؟ فاذا قالوا اننا آمنا به من دون برهان فلن تبق لادعاءاتهم قيمة مـا دامت لا تستند الى برهان •

قالت ورقاء : واذا اعترفوا بوجود برهان يدعوهم الى الايمان بمبدأ الشك ؟

قالت معاد : أما اذا اعترفوا بوجود برهان جرهم الـى الايمان بمبدأ الشك فنعود لنسألهم ، هل ان بين البرهان

الذي جركم الى مبدأ الشك وبين النتيجة التي حصلت من ذلك البرهان صلة أم لا ؟

قالت ورقاء : هبيهم قالوا بعدم وجود صلة بين النتيجة والبرهان .

قالت معاد : أما اذا قالوا بعدم وجود صلة بين البرهان والنتيجة التي هي (الشك في كل شيء) فنحن نقول لهم اذن فأي قيمة تبقى للأدلة على هـذه النتيجـة (نتيجـة الشك) ما دامت لا تمت للبرهان بسبب ؟

قالت ورقاء : هذا اذا لم يعترفـوا بوجود صلة بـين النتيجة والبرهان أما اذا اعترفوا بوجود صلة فماذا ؟

قالت معاد : أما اذا اعترفوا بوجود صلة بين البرهـان ونتيجته التي هي الشك في كل شيء فنحن نقول لهـم :

اذن فان البرهان هو العلة والسبب الـذي أدى الـى هذه النتيجة ! ومعنى هذا أنكم آمنتم بضرورة وجود علة ومدلول هذا الاعتراف هو الاعتراف بوجود قانون العلية (أي قانون السببيـة) اذن ، فهناك شيء موجود غيـر مشكوك فيه الا وهو قانون العلية .

قالت ورقاء : واذا حاولوا نفي قانون السببية ؟

قالت معاد : انهم اذا حاولوا نفي السببية أي (العلية) فنفيهم هذا منهم على شكلين :

أولا : ان هذا النفي يستند الى دليل .

ثانيا : انه لا يستند الى دليل .

قالت ورقاء : فان قالوا انه لا يستند الى دليل ؟

قالت معاد : نقول لهم : انه فقد قيمته اذن لافتقـاده الدليل مع حاجته اليه .

قالت ورقاء : واذا قالوا انه يستند الى دليل ؟

قالت معاد : أما اذا قالوا انه يستند الى دليل فان معنى ذلك الاعتراف منهم بقانون العلية ، اذ اعترفـوا بوجود سبب لهذا البرهان حيث قدموا هذا السبب كدليل لصدق مدعاهم .

وعند هذا سكتت معاد فقالت ورقاء : هل تسمحين لي أن أكتب خلاصة هذا النقاش ؟

قالت معاد : نعم ومن الصالح أن تكتبي لكي لا يذهب عن بالك بعض نقاطه .

فأخذت ورقاء تكتب حتى فرغت من الكتابة ورفعـت

رأسها نحو معاد وكأنها تستزيدها من الحديث ولكن معادا قالت :

لقد جئتك في مهمة خاصة يا ورقاء راجية منك مساعدتي عليها .

قالت ورقاء : انني أرحب بكل مساعدة مني لك .

قالت معاد : انها تتعلق بزواج أخي سناد فهل أنت مستعدة لمساعدتي يا ورقاء لأنني مهتمة جدا بهذا الموضوع ؟

قالت ورقاء : اذن ، وما دام الأمر يهمك فانني سوف اساعدك بكل جهدي يا اختاه ولكن كيف ؟ وعن أي طريق ؟

قالت معاد : ان أخي سنادا عزيز علي جدا وهو جدير بكل محبة واعزاز اذ أنه انسان مؤمن ويجسد في سلوكه جميع معاني الايمان ، ولهذا فهو رائع في كل شيء، ومحبب الى كل قلب ، ومريح لكل انسان وأنا منذ مدة أتمنى له أن يحصل على زوجة تسعده وتصبح له قرينة بكل شيء وقد وجدتها أخيرا والحمد لله .

فردت ورقاء قائلة : الحمد لله .

قالت معـاد : وقـد كنـت اريـد ان أطمئـن الـى اقتناعه بها لكي أصبح واثقة من سعادة الطرفين وترحيبهما بهذه الوصلة • وهنا ردت قائلة بصوت تشوبه اللهفـة : وهل اقتنع ؟

قالت معاد : نعم ولم يبق سوى اقتناعها هي وهذا مـا اريد مساعدتك عليه •

قالت ورقاء : وكيف ؟

قالت معاد : ان تحاولي اقناعها بصلاحـه لها معتمـدة بذلك على شهادتي بحقه وأنا ضمينة لك انك سوف لـن تندمي على ذلك أبدا •

وكانت ورقاء تستمع في حيرة وارتباك ثـم قالـت : ولكن من هي ؟ وأين يمكنني أن أجدها ؟

فابتسمت معاد وقالت : ألا يمكنك أن تحزري مـن تكون ؟ قالت ورقاء : كلا ••

قالت : خمني يا ورقاء •

قالت ورقاء : لا أتمكن أن أخمن •

قالت معاد : انـك تعرفينهـا أكثر من كل انسان وهي قريبة اليك وقريبة جدا يا ورقاء فهل عرفت مـن تكون ؟

فأطرقت ورقاء وقدعلت وجهها حمرة الخجل ولم تجب.

قالت معاد : أراك عرفت الآن من هي يا ورقاء، أفلا يحق لي أن أطلب منك المساعدة في أمرها ؟

ولم تجب ورقاء ، فعادت معاد تقول : مالي أراك ساكتة يا ورقاء ؟ ألا تثقين فيّ بابداء رأيك يا عزيزتي ؟ ألم تتفق أن نكون اختين ؟ ثقي أن أمرك يهمني كما يهمني أمر سناد ، وقد درست هذا الموضوع من ناحيتك كما درسته من ناحيته هو ، ولو لم أكن أعرف فيه الصلاح والخير لما عرضته عليك ، ولك أن تسألي عن سناد كل من يعرفه لكي يشهد لك بحقه .

هنا رفعت ورقاء رأسها وقالت في خجل : ان شهادتك وحدها كافية يا معاد ، ولكنني قد فوجئت ولم أكن أتوقع هذا ، ولهذا فانني سوف أفاوض جدتي في الأمر .

قالت معاد : ولكن المهم ان تكوني أنت مقتنعة فيه يا ورقاء فهل أنت مقتنعة ؟

فكادت ورقاء أن تقول : نعم ، لأنها كانت تحس بكامل الاقتناع والارتياح ولكنها وجدت أن من الخير لها أن تأخذ فرصة للتفكير أكثر لكي يكون جوابها بعيدا عن الارتجال فقالت :

أعطيني فرصة للتفكير يا معاد •

قالت معاد : طبعا ، فان من حقك ذلك يا ورقاء ، ولكن ما هو مدى هذه الفرصة ؟

قالت : يوم أو يومين •

قالت معاد : لك ذلك يا عزيزتي وأرجو أن يقودك تفكيرك لما فيه الخير •

فضحكت ورقاء وقالت : هل تعلمين أنني لم أعود نفسي على التفكير في اموري الخاصة من قبل لأن جدتي عودتني أن أتكل عليها بكل شيء •

قالت معاد : اذن جربي تفكيرك المستقل في هذه المرة•

قالت ورقاء : نعم سوف اجرب والتجربة هي طريق كل معرفة كما يقولون •

فابتسمت معاد وقالت : ولكن هذه القاعدة غير صحيحة يا ورقاء •

قالت ورقاء : وكيف ؟ ؟ أليست التجربة هي الأساس لكل معرفة وتصديق ؟

قالت معاد : كلا ، وليست هذه القاعدة سوى دعوى من ادعاءات التجريبيين الذين لا يريدون أن يؤمنوا بتصديق أي قضية مسبقة بتجربة تؤكدها ، متجاهلين

أن ايمانهم هذا هو دليل على امكان الايمان بقضية خالية عن التجربة •

فظهر الاهتمام علـى ورقاء وقالت : هل لك أن تشرحي لي ذلك يا اختاه فان لدينا معيدة في قسم الميكانيك مـا برحت تؤكد هذه القاعدة بمناسبة وبدون مناسبة •

قالت معاد : سوف أشرح لك ذلك غدا ان شاء اللـه لأن وقتي قد انتهى وعلي أن أبـدأ بتفقد المرضـى بعد دقائق •

جلست ورقاء بعد انصراف معـاد تستعيد كلماتهـا فتستشعر الغبطة والسرور ، وحدثت نفسها قائلة :

أتراني سوف أستجيب لمعاد ، فأكون الى جانب أخيها آخذ عنه كما أخذت هي عنه من قبل ؟

أتراه سوف يأخـذ بيـدي ليفتـح أمامـي أبواب المعرفـة والهداية كمـا فتحهـا أمـام معـاد ؟ لكـم سوف أكون سعيدة لو تم لي ذلك ، وكادت تلوم نفسها على ارجاء اعطاء الموافقة وهي لا تجد ما يحول دونها لأنه وعلى ما يبدو لها متكامل الجوانب •

وهكـذا بقيت ورقـاء تنسـج تصوراتها المشرفـة حتـى استيقظت الجـدة مـن نومهـا فنهضت نحوها

وقدمت اليهـا مـا كـانت تحتاج اليـه ثـم جلسـت الى جانبها تحاول أن تخبرها بما تحدثت به معاد فقالت :

لقد كانت الدكتورة معاد هنا يا جدتي •

قالت الجدة باقتضاب : طيب ••

فأردفت ورقاء تقول : وقد تحدثت معي في موضوع خـاص •

وهنا نظرت الجدة نحوها باهتمام وقالت : موضـوع خاص وما هو ؟

قالت ورقاء في تلعثم : انه موضوع خطبة •

قالت الجدة في شبه حدة : وما أنت وذاك ؟

قالت : انه أمر يخص أخاها يا جدتي •

فأجابت الجدة بنفس الشدة قائلة : وما هـي علاقتك بأخيها ؟

فاستغربت ورقاء هذه الشدة من جدتها وقالت : انهـا كانت تعرض علي خطبتي لأخيها يا جدتي •

وهنا ظهر الرعب على وجه الجدة وقالت : وبماذا أجبت يا ورقاء ؟

فارتبكت ورقاء وقالت : اقد أرجأت الأمر الى ما بعد مشورتك يا جدتي •

فأدارت الجـدة وجههـا نحـو الجدار وهي تقول : كلا ان هذا أمر لا ينبغي أن يكون أبدا ، انه غير ممكن يا ورقاء •••

فانتفضت ورقاء انتفاضة ألم وقالت : لماذا يا جدتي ؟ فسكتت الجدة ولم تجب •

فألحت عليها قائلة : لماذا تقولين لي ان هذا شيء غيـر ممكن ؟ ولكن الجدة بقيت معتصمة بالصمت •

فأردفت ورقاء تقول : أرجوك يا جدتي أن تشرحي لـي السبب لأنني مقتنعة بالموضوع اقتناعا كاملا •

ولكن الجـدة استمرت ساكتـة لا تجيب ، فعـادت ورقاء تقول : لماذا لا توضحي لي الأمر يا جدتي ؟ فلعلك مخطئة في تشخيصك هذا ؟

وهنا هزت الجدة رأسها في اصرار وهي تقول : كلا فانني لست مخطئة وانا أعرف ماذا أقول يا ورقاء ، وهـا أنا أقول لك من جديد ان تنصرفي عن التفكير في هـذا لأنه لا يمكن أن يتم ، ولهذا فأنا لا اريد أن تعودي الى ذكره ثانية •

فسكتت ورقاء لحظات ثم قالت : ولكن أليس من حقي أن اعرف السبب فليس من السهل علي أن احدد مستقبلي نتيجة أمر لا أعرف منشأه .

وهنا قالت الجدة : نعم ان من حقك ذلك يا ورقاء فهل أنت مستعدة للسماع ؟

قالت ورقاء : وراغبة فيه أيضا .

قالت : ولكنك وبعد سماع ما أقول سوف يتحتم عليك أن تقطعي علاقتك مع معاد أيضا .

فردت ورقاء في ذعر قائلة : أقطع علاقتي مع معاد وكيف لي بذلك وقد أصبحت بالنسبة لي ضرورة من ضرورات الحياة ؟

قالت الجدة : اذن فلماذا تريدين أن أقول ؟

فسكتت ورقاء لحظة ثم قالت : قولي ما لديك يا جدتي فأنا على استعداد لاستماعه مهما كان .

قالت الجدة : اذن فاسمعي ماذا أقول : انك تعلمين أن أباك قد توفي وأنت صغيرة .

فخفق قلب ورقاء بشدة وقد توقعت أن تسمع أحاديث غير مريحة ثم قالت : نعم انني أعلم ذلك .

قالت الجدة : ولكنك لا تعلمين السبب في وفاته •

قالت : كلا • ولا أعرف سببا لموته سوى حياته •

قالت الجدة : كان هناك رجل تعرف اليه وفرض عليه صداقته واستأثر بثقته حتى اتفقا أن يعملا معا فاقاما معملا لصنع الأواني البلاستيكية ، وتم انشاء المعمل وكان أبوك سعيدا بذلك مرتاحا الى عمله فيه، محدثا نفسه بالكثير من المشاريع، وقد اتفقا أن يكون المال من أبيك والعمل على ذاك لما ادعاه من خبرة مسبقة في الموضوع ،ولم يكن أبوك يملك المال المطلوب فأراد أن يبيع نصف الارض الزراعية التي يملكها ولكن النصف كان أقل من المقدار المسموح به للبيع في ذلك العهد،ولهذا فقد اشترى الاقطاعي حامد افندي نصف الأرض على أن يكتبها جميعها باسمه وأن يعطيه نصف المحاصيل عن تراض وأن يكون له حق استرجاعها بالقيمة التي باعها متى ما أراد ، وأنت تعلمين استغلال حامد أفندي وجبروته في هذه المعاملات ولهذا فلم يكن في وسع أبيك أن يبيعها لسواه وهي ضمن الارض التي تقع تحت سيطرته •

وكان نصف الارض هذا لا يكفي بمتطلبات المعمل ولهذا فقد رهن هذا البيت عند حامد افندي أيضا على أن

يستوفي ذاك حقوق الرهن من محاصيل نصف الارض التي في حوزته .

وعلى كل حال فقد تم انشاء المعمل ، وكان هو وصاحبه يتناوبان على حراسة المعمل في الليل .

وفي صباح يوم من الايام ذهبت الى المعمل مبكرة لحاجة عرضت لي فوجدت الناس متجمعين على باب المعمل وسيارات الشرطة تقف أمام الباب ، فاندفعت الى الداخل مرعوبة وهناك عرفت أن أول عامل دخل المعمل وجد أباك جريحا مضرجا بدمائه وقد أغمي عليه ويبدو أن القاتل كان قد حسبه ميتا .

فدخلت الغرفة حيث كان رجال الشرطة يدرسون الموقف وشريكه واقف، يبكي بدموع التماسيح فانحنيت عليه ألتمس منه نفسا أو كلمة، وسرعان ما تم نقله الى المستشفى فذهبت معه الى هناك واتفق أن كنت الى جانبه وحدي واذا به يفتح عينه وينظر الي ثم قال انه فلان ، ثم أغمض عينيه الى الأبد .

وسكتت الجدة وقد تهدج صوتها من التأثر .

فسألتها ورقاء من خلال دموعها التي انهمرت لتأثرها

من حديث جدتها سألتها قائلة بلهفة : وما هو الأسم الذي ذكره يا جدتي ؟

قالت : انه عبد المجيد محمود الراجي !

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة وقالت معيدة كلمات جدتها : عبد المجيد محمود الراجي ؟ والد معاد وسناد ؟

قالت الجدة : نعم ، انه هو ، وقد أدليت بشهادتي في وقتها ولكنها لم تكف وقد أثبت بعده عن مسرح الجريمة بمختلف وسائل الغش والخداع فسجلت الحادثه على أنها حادثة قتل في سبيل الاختلاس من قبل مجهول .

قالت ورقاء : وهل حصل اختلاس أيضا .

قالت : طبعا ، وقد اختلس مع المال الذي كان موجودا في الصندوق الحديدي هناك الأوراق الرسمية للاتفاق الذي بينهما ، والأوراق التي تخص بيع نصف الأرض وحق استرجاعها وأوراق تصفية حساب رهن هذا البيت ، وهكذا خسرنا كل شيء حتى حق المطالبة بأرضنا ، وحق ملكية هذا البيت فان لدى حامد أفندي أوراق رسمية تؤيد حقه في الأرض والرهان ، في الوقت الذي لا نملك نحن ما يؤيد الاسترجاع ، وما صبر علينا كل هذه المدة الا لغاية لا يعلمها الا الله .

وقد كنت أعرف أن لدى عبد المجيد هذا توأمان باسم سناد ومعاد ولهذا سألت معاد عن اسم أبيها فتجاهلت السؤال ، ولكنني بعد ذلك عرفت اسمه من الممرضات فهل تجدين أن من الممكن لك أن تتزوجي ابن قاتل أبيك يا ورقاء ؟

فأجابت ورقاء في مرارة قائلة : كلا سوف لن أتزوجه يا جدتي ولكنني لن أقطع علاقتي مع معاد •

قالت هذا وقد بللت الدموع وجهها وهي تفكر في معاد أكثر مما تفكر في سناد •

مر اليوم كئيبا حزينا على ورقاء • وفكرت كثيرا وهي تحدث نفسها قائلة : ولكن أي ذنب له ولها في الموضوع؟ لنفرض أن أباهما مجرم فهل يحق لنا أن نأخذهما بجريرته؟ كيف سوف أرد على معاد ؟ وبأي حجة سوف أرفض أخاها ؟ أتراني سوف أحدثها بالحقيقة ؟ ولكن هل يجوز لي نبش الماضي ووصم هذين الاخوين الطاهرين بمثل هذه الوصمة ؟ لعلهما يجهلان ماضي ابيهما فكيف لي أن أكشف لهما ما يجهلان ؟

وصممت أخيرا أن تبقى على علاقتها مع معاد وقد تذكرت موعدها معها في يوم غد ، وانتظارها لشرح ما

طلبته منها فزاد شعورها بالخسارة وبصعوبة الانقطاع عنها ، وهكذا قضت يومها وليلتها في شدة من الحيرة والالم •

وأشرق عليها الصبح بعد ليلة ما نامت خلالها الا القليل واذا بها تجد جدتها وقد صممت على ترك المستشفى بأي حال من الاحوال ، وكلما حاولت أن تثنيها عن ذلك ألحت تلك وألحت حتى رضخت لرغبتها وجمعت ما لديها من حوائج ثم طلبت من جدتها أن تؤجل الخروج الى حين اخبار الطبيب المختص •

ولكن الجدة كانت مندفعة الى الخروج فلم توافق على التأجيل وكأنها كانت تريد أن تبتعد بورقاء عن طريق معاد بأسرع وقت خشية أن تضعف ورقاء أمام الاغراءات•

وعندما يئست ورقاء من التأجيل ذهبت تسأل عن معاد وهي لا تعلم ماذا سوف تقول لها ولكنها كانت تريد أن تراها بأي شكل من الأشكال ، وفوجئت عندما علمت أن معادا مجازة خلال ذلك الصباح فاحتارت ماذا تصنع ؟ وهل يمكنها أن ترحل عنها هكذا وبدون كلمة وداع ؟ وما أبعد هذا عن أحاسيس الوفاء وعرفان الجميل وما أبعده أيضا عن عهود الاخاء التي

أبرمتها لمعاد ؟ ثم خطر لها أن تترك لها ورقة فكتبت سطورا جاء فيها ما يلي •

عزيزتي معاد :

لا أدري ماذا أقول ؟ وأنا اواجه دوامة لا سبيل لـي بالنجاة منها ، وها أنا راحلة مع جدتي التي فرضت علـي هذا الرحيل ، يبدو أن الله عز وجل شاء أن يطردني عن فردوسه بعد أن وجدت السبيل اليه ، سوف أتركك بقلب باك لاواجه المستقبل المجهول وأنا وحيدة مهيضة الجناح ، سوف أعود ثانية الى الضيعة الفكرية والحيـرة النفسية فليرحمني الله ، وأرجو أن لا تغضبي علي فان هناك مـا يفرض علي هذا التصرف أما أخوك فأرجو مـن الله أن يبدله بخير مني وما رفضته لمنقصة فيـه ولكن هكذا شاء الله ، واذا رأيت أنني ما زلت أستحق اخوتك فاكتبي لي على عنوان صديقتي وهـو ••• زقاق •• رقـم الـدار •••• ثم طوت الرسالة وسلمتها لاحدى الممرضات لكي تسلمها الى معاد عند عودتها ورجعت الى جدتها لتتوجـه معها الى البيت •

تعاقبت الأيام بطيئة وثقيلة بالنسبة الـى ورقاء فقـد ساءت صحة جدتها على أثر الحركة وبعدها عـن الطبيب

وبقيت هي موزعة بين تمريضها ودروسها وباقي الالتزامات اضافة الى فكر حزين يلازمها ، وحنين الى معاد لا يفارقها، وحاجه الى فهم جديد تلح عليها ، وكثيرا ما لاحظت الجدة على عينيها آثار الدموع فعز عليها ذلك ولكنها تجاهلته واعتبرته ضرورة كان لا بد منها ، وبعد مرور أكثر من عشرة أيام سلمتها صديقتها رسالة تحمل طابعا داخليا .

فخفق قلب ورقاء وتساءلت مع نفسها قائلة :

أتراها من معاد ؟

أتراها لم تنكر علي موقفي منها ؟

ثم سارعت الى فتحها وألقت نظرة عجلى على الاسم فوجدته من معاد ، فانتحت جانبا وقرأت الرسالة فوجدت فيها ما يلي :

عزيزتي ورقاء :

سلام الله عليك ورحمته وبركاته وسلامي وأشواقي وصادق دعائي واخائي .. ها أنا أكتب اليك بعد أن تخلصت من آثار المفاجأة التي أملتها علي سطورك وكم عز علي ذهابك دون أن أطبع على جبينك قبلة اخاء صادق، وقبل أن تعرفي بأن معادا ليست تلك التي تتنازل عن اخوتك بسهولة ، لقد وجدتك يا ورقاء كالزهرة العطرة التي وجدت

لتتفتح فتنشر من حولها الاريج ، ولتعطر بعطرها أجـواء الربيع ، ولكنها افتقدت اليد التي تسقيها الماء ، ولم تحصل على الظل الذي يحميها من وهج الشمس ، فقبعت فـي أكمامها وهي تنتظر الذبول ، قبل ان تتفتح وتؤدي رسالتها في الحياة .

وجدتـك هـكذا يـا ورقـاء وأحسست بروحـك وهي تناديني اليها طالبة مني السقاية والحمـاية وسمعت نداء الواجب يدعوني للاجابة ، ففتحت لك قلبي ، ومددت نحوك يدي ، وعرضت عليك اخوتـي فوجدت عنـدك الاستجابة المطلوبة والتجاوب الذي أقر عيني .

ثم اخترتك لتكوني قرينة أخي الذي هـو أهم شيء عندي ، ثم وفجأة ، وبدون سابق انذار ، وجدتك تختفين ولا تخلفين وراءك الا بضعة سطور ، ولا أكتمـك بـأن المفاجأة لم تكن بسيطة بالنسبة الي ، ولهذا فقد أقعدتني آثارها عن المبادرة في الكتابة .

أمـا الآن وقـد عـدت الـى نفسي وجدت أن علي الا أدع أواصر اخوتنـا تنقطع هكـذا ، وبسهولـة ، ولهذا ، فها هي سطوري بين يديك تحدثك عني وتقول لك بأنني ما زلت اختك في السراء والضراء ، وأنا لا أريد أن أسألك عن السبب في كل مـا حدث لكـي لا أحرجـك

واحراجك مما يعز علي كما تعلمين ، واذا أردت مراسلتي فان ذلك ممكن على عنوان المستشفى ، هذا واستودعك الله الذي لا يخون الودائع •

معاد

انتهت ورقاء من قراءة الرسالة وكان شعورها مزيجا بين الفرحة والألم ، وقررت أن لا تخبر جدتها بأمرها وأن تبقى على اتصال مع معاد ، وفعلا فقد بادرت الى الكتابة في تلك الليلة ، فكتبت اليها تقول :

عزيزتي معاد :

دعيني اقبلك عن بعد ، فالله وحده يعلم كم أنا متشوقة اليك وخجلة منك يا اختاه • وأنت التي وجدتك على ظمأ معينا ريا رويا فما شربت منه سوى نهلات حتى صدت الكأس عن شفتي يد الزمان القاسية فأعادتني الى الظمأ اللاهب ، وأسلمتني الى حياة الوحدة المريرة ، لقد عشت عمري افتش في صفحات سجل حياتي عن مرفأ أمين يشدني عبر مسيرتي الطويلة في مدرجات الحياة ، وطالما هفوت اصدر حنوز يحتضنني وينفتح الي ، فاسند اليه رأسي المكدور ، وأكشف أمامه مشاعري وأفكاري الموءودة،وقد كنت يا عزيزتي أعيش الضيعة الفكرية وأتمنى لو وجدت

فكرا يفتح أمامي مغاليق المعرفة ويأخذ بيدي الى طريق الهداية والدراية وما أكثر ما رددت قول الشاعر :

واني لمحتاج الى ظل صاحب يروق ويصفو ان كدرت عليه

في يوم من الأيام ، حتى رأيتك ••• فوجدت فيك تجسيدا للأخت التي نسجت شخصيتها في أحلامي وسبق أن تصورتها في أفكاري فتغلغل حبك في قلبي ، وملأ الاعجاب بك جوانب نفسي ، وأحسست أن سفينة حياتي قد وجدت لديك مرفأها الأمين وقد آن لها أن تلقي قلاعها على ساحل اخوتك فركنت اليك كاخت ، واعتمدت عليك كموجهة ، واحللتك من نفسي المحل الرفيع الرفيع، وفجأة بدأت الحياة تلعب معي لعبتها القاسية من جديد، فأخذتك مني أو اخذتني منك ، وجعلتني أحس بالضيعة مضاعفة وبالوحدة بشكل أعمق ، فأسلمني ذلك الى دنيا اليأس المريرة ، وعرفت أن الحياة تقسو حتى على أنبل المشاعر والعلاقات ، وأن الاقدار لا تقيم وزنا للعلاقات والصلات ، وأن الدهر لا يصفو بعد كدر ، ولا يهادن بعد حرب ، وان فاء الى المهادنة يوما ندم على ذلك وعاد يشن حربه العتيدة من جديد وما أحسن قول ابن هاني الاندلسي في هذا حين يقول :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ربما جاد لئيم فحسد

أو كما قال المتنبي :

أبدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

وهكذا بقيت اعاني من غلواء أحاسيسي الكثير ، حتى استلمت رسالتك صباح اليوم ، فوجدت فيها خيطا فضيا من خيوط الأمل ، هذه الخيوط التي تشدني اليك وبالتالي فهي تشدني الى خالقي يا اختاه ، فقد أصبح من العسير علي أن أبتعد عنك لأن قربك هو طريق قربي الى الله ولهذا فقد فرحت برسالتك يا معاد ، كما أنها زادتني بك اعجابا ولشخصك اكبارا ، وعلمتني درسا من دروسك في مغالبة النفس ووأد مشاعر الانانية ، والتلبس بالنظرة الواقعية المجردة عن المصالح الشخصية ، فالشكر لله أولا ولك ثانيا يا اختاه ؛ واعلمي بأنني كنت ولا أزال تلك التي تعهدين وما زلت أنتظر منك موعدا لزيارتك في أي مكان تعيشين ، هذا واسلمي لي دائما وأبدا يا اختاه .

ورقاء

أبردت ورقاء رسالتها ومرت عليها أيام الانتظار وهي أحسن مما كانت عليه حتى وصلها الجواب ، وكانت معاد تحدد لها فيه موعدا لتزورها فيه في المستشفى ففرحت

ورقاء بذلك ، وفي اليوم الثاني أخبرت جدتها عند خروجها بأنها سوف تتأخر لكي لا تقلق عليها ثـم توجهت مـن الكلية الى المستشفى ، ويبدو أن معادا كانت قد أوصت بها اذ أنها لم تصادف أي مضايقة حتى انتهت الى غرفـة معاد فوقفت أمام الباب محاولة التغلب على آثار الارتباك التي كانت تحسها ، ثم طرقتها برفق فطالعها وجه معـاد مشرقا واستقبلتها بالترحاب ، فجلست ورقاء وهي تغالب دموعا طفرت الى عينيها ، وبادرتها معاد قائلة :

أهلا وسهلا بك يا ورقاء ، لقد أوحشني غيابك وكأنني عشت معك العمر كله مع أن معرفتي بـك لـم تتجـاوز الأسابيع •

فقالت ورقاء : وأنا كذلك يا معاد والله وحده يعلم كم عانيت وعانيت لخشيتي ان تكوني ناقمة علي •

قالت معاد : لكنك حرة في اختيارك يا ورقاء فلمـاذا أنقم عليك يا عزيزتي وبأي حق ؟ لعل أخي لم يرق لك أو لم يحتل الثقة المطلوبة عندك •

فقطعت ورقاء كلامها قائلة : أرجوك يا معاد ، لا تقولي هذا فان كل ما حدث لم يكن نتيجة عدم الاقتنـاع لأن شهادتك في حقه كفيلة باقتناعي به ولكن •••

فقالت معاد : ولكن ماذا يا ورقاء ؟

قالت : ولكن جدتي هي التي رفضت ذلك •

قالت معاد · وهل عرفت السبب في رفضها يا ترى ؟

فارتبكت ورقاء ولم تعلم بماذا تجيب ، ولهذا بقيت ساكتة ، ولكن معادا أعادت السؤال ••

فقالت ورقاء : انه سبب من الأسباب •

فابتسمت معاد لهذا الجواب وقالت : ولكن هل هو سبب كاف للرفض ؟

فسكتت ورقاء لحظة ثم خرج صوتها جريحا وهو يقول : نعم انه سبب كاف يا معاد •

قالت معاد : اذن فسوف لن ألحف عليك أكثر من هذا والمهم أن نبقى على أخوتنا يا ورقاء •

قالت ورقاء :نعم فها انا استشعر معك بشعور من الراحة والاطمئنان افتقدته منذ فارقتك حتى الآن مع كثرة من أرى وأجد من الصديقات والاخوات ، لأنني وثقت فيك كما لم أثق بسواك والثقة هي طريق كل قرب وود •

قالت معاد : ان هذا هو نفس شعوري نحوك يا ورقاء•

قالت ورقاء : لقد مررت بتجارب عديدة قبل اليوم ولكنني لم أشعر بالانهيار امام أحدهما كما انهرت أمام هذه التجربة التي هددتني بالانقطاع عنك يا اختاه .

فضحكت معاد وقالت : أراك ما زلت تتحدثين عن التجارب يا ورقاء ؟

قالت ورقاء : كما انني ما زلت أتنظر حديثك عنها يا معاد .

قالت معاد : وأي حديث عنها تريدين ؟

قالت : ألم تعديني أن تعودي الى حديثك عن التجربة ومدى علاقتها بالعلم الصادق ؟

قالت معاد : يبدو أن ذاكرتك قوية يا ورقاء :

قالت ورقاء : وكيف لي أن أنسى هذا وهو أمر مهم بالنسبة الي ؟

قالت معاد : اذن دعينا ندرس الموضوع من جديد لنعرف ماذا يقول التجريبيون ؟

قالت ورقاء : انهم يقولون بعدم التمكن من تصديق بدون تجربة مسبقة ، وهم لا يعترفون بدور العقل في

مضمار تصديق القضية ما لم تدعمها تجربة ، اذ أنهم ينكرون وجود قضايا بديهية .

قالت معاد : ولهذا فنحن نقول لهم : هبوا أنكم جربتم أن تقربوا قطعة من الحديد الى النار فرأيتم نتيجة ذلك أنه قد تمدد من تأثير الحرارة فكيف تمكنتم أن تعمموا هذه القاعدة (قاعدة تمدد الحديد بالحرارة) على مجموع الحديد في العالم ، مع أن التجربة اجريت على قطعة واحدة لا أكثر ؟ ومن هنا يبرز دور العقل في تعميم هذه القاعدة على كل الحديد، وحتى في هذه القطعة التي تمددت نتيجة تعرضها للنار ، فان التجربة أثبتت حالة التمدد فقط وجعلتنا ندرك هذه الحالة بحواسنا ، أما السبب الذي أدى الى هذا التمدد فهو أمر لم تثبته التجربة ولكن العقل هو الذي دل عليه ، النار حارة ، حرارتها أوجبت التمدد في الحديد ، اذن فان علة التمدد هي حرارة النار .

قالت ورقاء : لطيف ، لطيف يا معاد ثم ماذا ؟

قالت : اننا نتمكن أيضا أن نناقشهم قائلين : انكم تؤمنون باستحالة اجتماع النقيضين وهذا ايمان لا مناص لكم منه لأن العلوم الرياضية بما فيها علم

الحساب الذي هو أبده العلوم قائمة على أساسه ولولاه لتهاوى علم الحساب وافتقد قواعده التي يرتكز عليها •

وهنا تساءلت ورقاء قائلة : وما هو تعريف اجتماع النقيضين يا معاد ؟

قالت : اجتماع النقيضين اصطلاح يعبر عن جمع شيء مع نقيضه في محل واحد ، كأن نقول أن هذا الماء حار وبارد ، أو نقول ان هذه الشمس مضيئة ومظلمة في وقت واحد ، أو نقول ان فلانا طويل وقصير ، ورفض الايمان باستحالة اجتماع النقيضين يعني عدم الايمان بصحة قواعد علم الحساب •

قالت ورقاء : أرجو توضيح ارتباط ما تقولين من أفكار استحالة اجتماع النقيضين مع علم الحساب يا معاد ؟

قالت معاد : ان مثل ذلك هو أننا لو عرفنا أن (١ + ١ = ٢) لحققنا بهذه المعرفة أول ركيزة من ركائز هذا العلم الى هنا فان الموضوع لا جدال فيه ولا مراء ، أما اذا قلنا ان (١+١=٣) فانما يعني قولنا هذا دعوى اجتماع النقيضين ، وتوضيح ذلك ان كلمة يساوي تعني المساواة ، والموازاة ، والمقارنة ،

والمماثلة ، وعلى هذا فان واحد زائد واحد لا يمكن أن يساوي أو يماثل أكثر من اثنين لأن ما يساوي الواحد اذا اضيف اليه واحـد هـو الاثنان فقط لا غير ، فان نقول يساوي ثم نأتي بشيء لا يمكن له المساواة فهذا جمع النقيضين وهما المساواة واللامساواة ، ولهذا فنحن نقول لهم : انكم اما أن تؤمنوا بعدم امكان اجتماع النقيضين، واما أنكم لا تؤمنون به ، فاذا كنتم تؤمنون فمن أين حصل لكم هذا الايمان ؟ هل جاء بعد تجربة ؟

قالت ورقاء ! وكيف لهم أن يجربوا اجتماع النقيضين وهو محال ؟

قالت معاد : اذن وما دامت تجربة اجتماع النقيضين محالة فلا بد أن يكون هذا الايمان وليد معرفة بديهية يمليها لهم العقل الذي لا يريدون أن يعترفوا بدوره المجرد عن التجربة في الحياة •

قالت ورقاء : لعلهم يقولون انهم جربوا الاشياء فلم يجدوا في واقع الكون حالة يجتمع فيها النقيض مع نقيضه وعلى هذا الأساس عرفوا أن اجتماع النقيضين مستحيل وغير ممكن •

قالت معاد : ان هذه التجارب السلبية انما تدل على أن

اجتماع النقيضين غير واقع وليس على أنه لا يمكــن أن يقع مع أنا جميعا نؤمن بأنه لا يمكن أن يقع ، وهذا لا يمكن أن يستند الى التجربة لأن عدم الامكان والاستحالة ليس شيئا يمكن أن نراه في تجاربنا .

قالت ورقاء : واذا قالوا بأنهم لا يؤمنون بعدم امكان اجتماع النقيضين ؟

قالت معاد : عند ذلك نقول لهم انهم ينكرون وجود أهم علم قامت عليه معارفهم وهو علم الحساب ....

والى هنا سكتت معاد معطية ورقاء فتــرة للتفكيــر وكانت ورقاء مندمجة مــع ما سمعت ومنجذبة اليه .

وبعد أن سكتت معاد بفترة قصيرة قالت لها : لشد ما كنت في حاجة لأن أسمع هذا أو اعرف عنه شيئا يا أختاه، وما زلت أطلب منك المزيد .

قالت معاد : ولكن متى سوف تأتيني مرة ثانية يا ورقاء؟

قالت ورقاء : سوف أحاول ذلك متــى مــا وسعني ، والآن علي أن أذهب قبل أن تقلق جدتي لغيابي .

★ ★ ★

استمرت ورقاء تزور معاد بين حين وحين دون أن تعرف جدتها بذلك أو تشك فيه وفي يوم من الأيام عادت متأخرة قليـــلا فوجدت جدتها مكفهرة الوجـــه متوترة الأعصاب وبادرتها قائلة بعنف : أين كنت يا ورقاء ؟

فخمنت ورقاء أن جدتها قد علمت بأمر زيارتها لمعـــاد ولهذا آثرت المماطلة الى أن تعرف الواقع .

فقالت : ولماذا تسأليني يا جدتي ؟

قالت الجدة بحدة : لكي أعرف هل أنت قادمة لتوك من الكلية ؟

وحدثت ورقاء نفسها قائلة علي أن أقول الصدق مهما كانت النتائج وينبغي أن اواجه الواقع بشجاعة ولهذا ردت تقول : كلا .

قالت : اذن أين ذهبت ؟

قالت : لقد مررت على المستشفى .

عند ذلك انفجرت الجدة تقول : انك مررت على معـــاد أليس كذلك ؟ اعترفي يا ورقاء ولا تغالطي في الحقيقة ؟ لقد كنت أحسبك أعقل من هذا ، كيف تسمحين لنفســـك بابنة قاتل ابيك ، انها خيانة منك يا ورقاء .

فردت ورقاء بهدوء قائلة : ولكن من أين عرفت ذلـــك يا جدتي ؟

قالت : لقد اتصلت احدى صديقاتك تسأل عنك وقالت انك توجهت الى البيت منذ مدة . ومن هذا عرفت أنك قد ذهبت الى معاد .

قالت ورقاء : وماذا في ذهابي يا جدتي ؟ انني رفضت سناد لكي لا أرتبط في حياتي الزوجية مع ابن قاتل أبي ، أما ان اقطع علاقتي وصداقتي مع معاد فـــان هـــذا ما لا يمكن أن يكون لأنني محتاجة اليها فكريا وروحيـــا ولا أرى في ذلك أي دليل من أدلة الخيانة .

وهنا ألقت الجدة آخر ما لديها من سهام حيث قالت : انك لا تعنين معاد فيما تقولين ولكن من يهمك هو أخوها، فقد عرفت من الممرضات أنه جميل وجذاب وقد انخدعت بجماله يا ورقاء .

فردت ورقاء بصوت متهدج قائلة انـــك تظلمينني يـــا جدتي لا تبالغي في القسوة علي فانني لم أره الا مرتين عن طريق الصدفة فقط ، فلا تنسجي من حولي أفكارا مريبـــة يمليها عليك عالم الخيال .

وفي عصر اليوم الثاني كانت معاد تنتظر ورقاء فـــي

موعدها المحدد ، ولما حضرت اليها لاحظت عليها شيئا من الشحوب ، ولما سألتها عما بها ..

قالت : انه من تأثير السهر الذي تفرضه عليها الدراسة. فلم تقتنع معاد بهذا الجواب ولكنها أظهرت الاقتناع ، وكانت ورقاء متعجلة أكثر من عادتها ولهذا بادرت تقول :

انني ما زلت أنتظر حديثك عن التجربة يا معاد .

قالت معاد : أراك متعجلة اليوم يا ورقاء فهل هناك من جديد ؟

فترددت ورقاء قليلا ثم قالت : كلا ليس هناك من جديد.

قالت معاد : اذا فلنبدأ بالحديث .

قالت نعم فانني مشوقة الى تكملة ما شرحتيه لي حول التجربة .

قالت معاد : ان التجريبيين يقولون عن القضايا التصديقية انها لا يمكن أن يعترف بها دون تجربة مسبقة أليس كذلك ؟

قالت ورقاء : ولكنني اريد أولا تعريفا للقضايا التصديقية .

قالت : ان القضايا التصديقية هي كل قضية صادقة يصدقها الانسان ويؤمن بصحتها ، هذا هو التعريف المختصر للقضايا التصديقية ، والحقيقة ان كل تصديق يحتاج ويعتمد على تصديق قبله، والتصديق الذي قبله يحتاج الى تصديق قبله ولكن لا يمكن أن تتراجع هكذا باستمرار من تصديق الى تصديق دون أن نصل الى بداية ، والا كان معنى هذا أننا لن نحصل على أي معرفة أو تصديق أساسا ... فظهر على وجه ورقاء الاهتمام البالغ وتساءلت وكيف ؟

قالت معاد : افترضي أنك تريدين أن تتعرفي على بنت معينة وحسن سلوكها وانها ثقة فماذا تصنعين ؟

قالت ورقاء : أسأل من بعض رفيقاتها عنها .

قالت معاد : ولكن كيف تعرفين هذه الرفيقة لكي تسألي منها فقد لا تكون معرفتك بها الا عن طريق شهادة من اخرى ، ولكن أليس من المنطقي أن تنتهي هذه الشهادات عند شاهدة تعرفينها مباشرة لكي تكون هذه هي البداية لانطلاقك الى التعرف على الاخريات .

قالت ورقاء : هذا صحيح بالضبط .

قالت معاد : وهذا ما نقوله بالنسبة الى المعارف

التصديقية للانسان عموما ، فانها لا بد لها من بداية تعتمد عليها ، وهذه البداية لا بد أن تكون معروفة لنا بصورة مباشرة وبدون أي تجربة واستدلال •

قالت ورقاء : اذكري لي مثالا من هذه المعرفة المباشرة •

قالت : مثله أن نقول ان بعض الكتاب أصغر من مجموع الكتاب ، فنحن لو ادعينا هذا ثم قال لنا قائل : من أين عرفتم أن بعض هذا الكتاب هو أصغر من مجموع الكتاب ؟ وهل لديكم تجربة أو دليل يثبت ذلك ؟ لقلنا ان هذا أمر بديهي لا يحتاج الى تجربة ودليل ، اذ أن مجرد قولنا بعض يعني ايماننا بوجود بعض وكل وان البعض أصغر من الكل •

قالت معاد : واذا قالوا انه ما دامت المعارف البديهية لا تحتاج الى تجربة مسبقة ويتمكن العقل المجرد عن التجربة ان يشخصها فلماذا لا يدركها الانسان منذ الطفولة ما دام العقل معه منذ الطفولة ولماذا لا يبقى يدركها حتى ولو رد الى أرذل العمر ؟

قالت : عند ذلك نقول لهم ان الادراك على مرحلتين : ادراك تصور ، وادراك تصديق •

قالت ورقاء : عرفي لي الادراكين بالأمثلة من فضلك يا معاد .

قالت : الادراك التصوري كأن تتصور الماء ، والسماء ، والشمعة والزهرة ، والذهب ، والفضة ، وهذا هو الذي يولد عند الانسان نتيجة لوجود أحاسيسه التي تساعده على التصور .

قالت ورقاء : ولكننا قد ندرك في تصوراتنا أشياء غير ممكنة كأن تتصور بحرا من زئبق ، أو جبلا من ذهب .

قالت معاد : وهنا يأتي دور الادراك التصديقي وهو اثبات صحة تصوراتنا وانطباقها على الواقع ، ولكن الادراك التصديقي الذي نعتمد عليه هنا يعتمد هو بدوره على الادراك التصوري أيضا .

قالت ورقاء : كيف ؟ ولماذا ؟

قالت لأنه ليس من الممكن ادراك شيء والتصديق به دون تصوره بشكل مسبق لهذا الادراك ، فنحن مثلا لا يمكن لنا أن نصدق بوجود النخلة دون أن نتصورها .

قالت ورقاء : اذن فان الادراك التصديقي يعتمد على الادراك التصوري ؟

قالت معاد : نعم ولهذا نجد أن الطفل لا يتمكـــن ان يدرك حقائق تصديقية فوق مستوى ادراكــه التصوري لمحدودية ادراكاته التصورية وسطحيتها ، وهكذا نعــرف ان الطفل او الانسان الذي يرد الى أرذل العمر لا يتمكن أن يدرك القضايا البديهية •

قالت ورقاء : لشد ما أحس بالراحة عندما استمع الى حديثك يا معاد ، أرجو أن لا يفارقني الله عنك يا أختاه•

قالت معاد بعد شيء من التردد : نعم أرجو ذلك يــا ورقاء •

قالت ورقاء : بودي لو جلست معك أكثر ولكن علــي الآن أن أذهب •

فردت معاد تقول : اذهبي بحراسة الله ولكن لا تنسي موعدك غدا ان شاء الله •

★ ★ ★

عادت ورقاء الى البيت فوجدت الجدة متجهمة الوجه وقد ردت سلامها باقتضاب ، فانحنت على يدها تقبلهــا وهي تقول : أرجوك أن لا تغضبي علي يا جدتي لأنني أذهب الى زيارة معاد ، سامحيني من هذه الناحية وسوف اطيعك في كل شيء عداها •

فرفعت الجدة رأسها وقالت بتحد : تطيعينني بكل شيء ؟

قالت : نعم بكل شيء عدى قطع علاقتي مع معاد .

قالت الجدة : اقسمي على ذلك اذن، اقسمي ان تطيعيني بكل شيء مهما كان .

فكادت ورقاء أن تقسم لولا ان خطر لها خاطر أوحاه اليها تحفز جدتها فشحب وجهها قليلا ثم قالت : كلا انني لا اقسم ويكفي ان اعطيك عهدا على ذلك .

قالت الجدة : وان يكون عهد شرف يا ورقاء .

قالت ورقاء : نعم انه عهد شرف ..

فانفرجت أسارير الجد وقبلت حفيدتها وعادت الى وضعها الطبيعي ولكنها حدثت نفسها بعد ذلك قائلة : لقد أعطتني ورقاء عهدا أن تستجيب لي في كل شيء ولهذا سوف تضطر لقبول قراري الذي أتخذه عند خطبة ابن عمها ماهر لها ، هذا المسكين الذي أجلت أنا خطبته منذ السنة الماضية بانتظار أن تكمل دراستها ، وقد بدأ يستعيد الموضوع من جديد ، انه شاب غني ومثقف واذا كان غير ملتزم دينيا فهي سوف تهديه للالتزام ، وبهذا تنقطع علاقتها مع معاد بشكل نهائي .



بقيت ورقاء تنتظر عصر اليوم الثاني وما ان أكملت دوامها حتى توجهت الى معاد فوجدتها تنتظرها عند باب المستشفى حيث قالت لها : انني ذاهبة الى البيت وكنت أنتظرك لآخذك معي فان عندي بعض الأشغال هناك •

فاستغربت ورقاء وقالت : الى البيت وأي بيت ؟

فابتسمت معاد وقالت : بيتنا نحن •

قالت ورقاء في تردد : ومن سوف يكون هناك أيضا يا معاد ؟

فعادت معاد تبتسم وهي تقول : لا أحد ، كوني واثقة من ذلك ، سوف نذهب انا وأنت وحدنا ثم نعود قبل الغروب ان شاء الله •

قالت ورقاء : اذن هيا بنا يا معاد •

قالت معاد : ان بيتنا قريب ولن نحتاج الى الركوب فتعالي لنتمشى اليه •

وهكذا سارتا معا حتى وصلتا الى البيت ففتحت الباب بمفتاح كان معها ووجدت ورقاء نفسها في حديقة صغيرة منسقة وأمام بيت صغير دخلته مع معاد فوجدته بسيطا في بنائه وأثاثه ولكنه يتميز بالذوق والتنسيق ، فلم

يسعها الا أن تسأل معاد قائلة : من الــذي ينظف هــذا ابيت يا معاد ؟

قالت معاد : انني آتي الى هنا مرتين في الاسبوع حيث أتعهد البيت في العناية والترتيب والتنظيف .

قالت ورقاء : ومن الذي يسكن هنا ؟

قالت معاد : انه أخي سناد .

قالت : وهل يعيش وحده هنا ؟

قالت معاد بشيء من الألم : نعم فنحن وحيدان في هذه الدنيا .

فتألمت ورقاء لمرارة هذا الجواب واستشعرت أنه صدى لمشاعر معذبة قد تمكنت معاد بقوة شخصيتها من اخفــاء معالمها . ولهذا فقد أطرقت في تألم وخشوع ولكن سرعان ما نادتها معاد بصوت مشرق قائلة مالك يا ورقــاء ؟ ألا تريدين أن تساعديني في العمل ؟

وكأن هذا الصوت قد أعاد ورقاء الى وضعها الطبيعي فأبدت استعدادها للمشاركة .

وبهذا تم انجاز الأعمال بسرعة فاقترحت معــاد علــى ورقــاء أن تجلسا قليلا فــي ظــلال الاشجار فجلستــا

متجاورتين ، وكانت ورقاء تشعر بالسعادة لأنها قدمت بعض المساعدة من أجل معاد ، وكانت أمامهما شجرة برتقال صغيرة قد ظهر الثمر فيها لأول مرة فأشارت اليها معاد وهي تقول : هل تعلمين أن هذه الشجرة قد غرزتها بيدي يا ورقاء وبقيت أتعهدها بالسقاية لأنها عزيزة علي ولهذا فأنا فرحة لمنظر ثمارها لأول مرة •

قالت ورقاء : ان من حقك ان تفرحي يا عزيزتي فما ألطف أن يرى الانسان البذور التي بذرها وهي تنمو وتزدهر ثم تثمر الثمر المطلوب •

وهنا رانت على وجه معاد سحابة ألم خفيفة ثم قالت : ولكن ما أقسى أيضا أن يشاهد الانسان بعد ذلك هذه الأشجار التي غرز بذرتها بيديه وتعهد سقايتها بماء عينيه وهي تقتلع عن الأرض بيد لئيمة أو نتيجة زوبعة هادرة عاتية •

فردت ورقاء تقول بألم : آه ، نعم انه شيء قاس جدا يا معاد ، ولكنني اريد أن اسألك شيئا وهو في خصوص شجرة البرتقال هذه مثلا ما هو سبب وجودها من الناحية الفلسفية ، البذرة أم أنت ؟

قالت معاد : لا أنا ولا البذرة،وانما هو الله تبارك وتعالى وما نحن سوى وسيلة من الوسائل التي هيأها الله لتواجد الحياة ، فالله عز وجل خلق الكون والحياة وجعل كل مـا فيها سببا من أسباب ايجـاد سواه او الابقاء على ذلـك الوجود .

قالت ورقاء : يـا لحكمـة الخالق المبـدع ولا ادري كيف يمكن لأحد ان ينكر وجوده او ينسـب الخلق الى سواه ؟

قالـت معاد : ماذا تقصدين بنسبة الخلق الى سواه ؟

قالت ورقاء : أقصد هؤلاء الذين يرجعون السبب الأول في خلق الكون الى المادة والذين يقولون أن المادة وتتيجة لحركتها الأزلية بدأت بايجاد الأنواع !

قالت معاد : حتى هؤلاء لو عادوا الى أنفسهم وفكروا بانصاف لعرفوا أو لا عترفوا بأن الله هو الخالق المدبـر ، اذ أنهم يتفقون معنا في المقدمات ويختلفون في النتيجة .

قالت ورقاء في تعجب : يتفقون في المقدمات وكيف ؟

قالت : أقصد أنهم يؤمنون معنا بأننا لم نكن موجودين ثم وجدنا ، ويؤمنون معنا أيضا أن وجودنا يحتاج الـى موجد لأن الوجود من العدم محـال ، ويشتركون معنـا أيضا من أن الموجد لا بد أن يكـون غيـر موجود مـن العدم بل هو أزلي في وجوده والا فمن الذي أوجـده ؟

ثم ولا بد لموجدنا أن يكون مالكا لكل مـا ملكنا ايـاه والا كان ما لدينا موجودا من العدم والوجود من العدم محال .

الى هنا تنتهي هذه المقدمات ونعود لكي نرى مـاذا يقول الالهيون عن هذا الموجد ؟

قالت ورقاء : انهم يقولون انه الله تبارك وتعالى .

قالت معاد : نعم أما الماديون فيقولون انه المادة وتتيجة لحركتها الأزلية ، ونحن هنا يمكننا أن نسأل هؤلاء الذين يوعزون خلق الكون الى المادة وحركتها الأزليـة نسألهم

متى بدأت المادة تتنوع تتيجة لحركتهـا الأزلية كمـا يقولون ؟ وأنها اذا كانت أزلية فكيف يمكن لنا أن نعرف بدايتها لأن الأزلي ليس له بداية ؟

قالت ورقاء : انهم لن يجيبوا على هذا السؤال لعـدم تمكنهم من وضع بداية لما يدعونه أزليـا وهـو المـادة وحركتها .

قالت معاد : وعندما لا نجد منهم جوابا لعدم تمكنهم من وضع بداية للأزلي نلتفت الى العلم لنسأله عن عمـر الأرض فنجده يقول : ان الأرض انفصلت عن المجموعـة

الشمسية منذ ألفي مليون عـام ، وان تكـامل برودتهـا استغرق ألف مليون عام حيث أنها بعد ذلك بدأت فيهـا بوادر تصلح للحياة .

قالت ورقاء : اذن فان للحياة بداية محددة .

قالت معاد : نعم وبعد الاستماع الى هـذه الحقيقـة العلمية نعود الى أزلية الحركـة لنقول : انها اذا كانـت أزلية فان معنى ذلك أن خلقها للأنواع أزلي أيضا .

قالت ورقاء باستنكار : اذن كيف امكن للعلم أن يحدد عمر الكون ؟

قالت معاد : ان هذا هو السؤال الذي نريد ان نطرحه عليهم يا ورقاء ، ان كيف أمكن للعلم أن يحدد عمر الكون؟

قالت ورقاء : هبيهم يقولون ان الحركة ليست أزليـة وانها أي الحركة قد دخلت على المادة واضيفت اليهـا ؟

قالت معاد : عند هذا نعود لنسألهم من الذي أوجـد هذه الحركة ؟ هل ان المادة هي التي أوجدتهـا ؟ ولكـن كيف توجدها بدون حركة مسبقة وهم يقولون ان عملية الايجاد والخلق هي نتيجة الحركة فـي المادة ؟ هـذا اذا قالوا ان حركة المادة غير أزلية .

قالت ورقاء : لنفرض أنهم قالوا أن الحركـة أزليـة ولكن المادة وقتت لها زمن الخلق ؟

قالت معاد : هذا أمر غير معقول لأن التوقيت والتحديد لا يصدر الا عن عاقل والمادة غير عاقلة .

قالت ورقاء : كيف يمكن لنا أن نثبت كون المـادة غير عاقلة ؟

قالت معاد : لأن العلم اثبت ان المادة تتكون من شحنات كهربائية . ولهذا فهي غير قابلة للتفكير والتعقل ، فـلا يبقى بعد هذا الا أن تكون المـادة خاضعة لعلة توقـت وجودها وحركتها وهذا هو ما يقوله الالهيون .

قالت ورقاء : هبيهم يقولون ان تأخر بداية الكون انما كان بانتظار استكمال المقدمات ، تماما كالمسافر يتـأخر أربع ساعات بعد الظهر يقضيها في تهيئة المقدمات وضبط الحقائب فكذلك كانت المادة وحـين استكملت المقدمات نشأت الحياة ؟

قالت معاد : اذا قالوا هـذا فنحن نقول لهم : لمـاذا اذن لم تكتمل هذه المقدمات في زمن سابق ؟

قالت ورقاء : هبيهم قالوا أن الكون سوف يجيب على

ذلك كما يجيب المسافر اذا سئل لماذا لم تسافر قبل الرابعة فهو يقول أن المقدمات اخذت من وقته اربع ساعات ولو كان قد بدأ بالمقدمات قبل الظهر لسافر قبل الرابعة ،وكذلك الكون فقد فرضت عليه المقدمات فترة زمنية فلم يتح له ان ينشىء الحياة الا في اللحظة المحدودة وهي قبل الفي مليون عام ؟

قالت معاد : ولكن هذا الجواب الذي يقوله المسافر بكل سهولة لا يمكن للكون ان يقوله .

قالت ورقاء : لماذا ؟

قالت : وذلك لان أي زمن يفترض ان المقدمات بحاجة اليه فهو موجود فعلا لديه من خلال حركته الأزلية على ما يدعون ، وانما يصح هذا الجواب من الكون اذا كان قد بدأ حركته وتهيئة المقدمات بنفس الطريقة التي بدأها المسافر ، أي اذا كانت حركته حادثة فان زمن الحركة يكون محدودا ، واذا كان محدودا فقد يعتذر عن عدم الاسراع بظهور الحياة بان ظهورها في وقت أسبق كان يتطلب فترة زمنية أبعد .

قالت ورقاء : شكرا لك يا أختاه وبالمناسبة فهل تعلمين انني انقم على الزمن أحيانا ؟

قالت معاد : أي حين هو هذا الذي تنقمين فيه على جلستنا هذه .

قالت ورقاء : عندما ينقضي بسرعة كما انقضى علينا في جلستنا هذه .

فضحكت معاد وتطلعت الى ساعتها ثم قالت : يبدو انك قد تأخرت أكثر مما ينبغي والآن هيا بنا لنذهب .
قالت ورقاء : لقد شعرت بالراحة في جلستنا هذه بشكل لم استشعره في المستشفى من قبل .

قالت معاد : سوف آتي بك معي في كل مرة لكي تتخلص هنا ولو الى فترة قصيرة من اجواء المستشفى الكئيبة .

★ ★ ★

عادت ورقاء الى البيت فاستقبلتها جدتها عند الباب وقالت لها باهتمام : ان عندنا ضيوف فاصعدي الى غرفتك واصلحي من وضعك وتعالي يا ورقاء .

فاستغربت ورقاء ذلك وقالت باستغراب : ضيوف .. ومن هم يا جدتي ؟

قالت : انه الاستاذ ماهر ابن عم ابيك وامه .

فردت ورقاء بنفور : وما دخلي انا بهم ؟

قالت الجدة : أليس هو ابن عمك يا ورقاء ؟

قالت : نعم انه قريبي ولكنه رجل اجنبي مـــن الافضل لي أن لا اجالسه واحادثه بدون فائدة •

قالت الجدة : ومن قال لك أن جلوســك معه بــدون فائدة ؟ انه انسان عظيم •

فابتسمت ورقاء في تهكم وقالت : ما هو الوجه فــي عظمته يا جدتي ؟

قالت : انه مثقف وفاهم ، وهو واسع الثراء أيضــا •

فتوجهــت ورقــاء نحــو السلم وهــي تقول بلهجــة ساخرة : تشرفنا •

فأمسكت بها الجدة وقالت : لا ادعــك تصعدين الا اذا اعطيتني عهدا بالنزول ، ألم تعاهدينــي على الاطاعــة يا ورقاء ؟

ولكن ••

كلا ، لا تصعدي تعالي وسلمي قبل ذلك فأنا اجــدك غير نازلة لو صعدت يا ورقاء •

قالت ورقاء فــي توسل : دعيني اصعــد يا جدتــي ، أرجوك •

قالت : كلا لن ادعك تصعدين لقد قطعت لي عهدا ان

تطيعينني في كل شيء ؟ تعالي يا ورقاء .

قالت ورقاء : شريطة أن تكتفي مني بالسلام فقط ثم أصعد بعده الى غرفتي .

قالت الجدة : نعم انه كاف في الوقت الحاضر . فلم تجد ورقاء بدا في الاستجابة لجدتها فتوجهت الى غرفة الاستقبال حسما للنزاع ، وكان الاستاذ ماهر يجلس على الكرسي المواجه للباب والى جواره امه العجوز .

فدخلت ورقاء وسلمت عليهم بصوت هادىء فنهض الاستاذ ماهر مجيبا لها ومرحبا بها ثم اشار الى الكرسي الذي بجواره وهو يقول : تفضلي بالجلوس هنا يا ورقاء .

وهنا ضمت الجدة صوتها الى صوت ماهر فأردفت تقول : تعالي يا ابنتي واجلسي الى جوار ابن عمك الاستاذ ماهر حرسه الله .

ولكن ورقاء لم تتقدم خطوة وانما قالت بأدب : ان عندي دروسا مهمة علي مراجعتها يا جدتي ولهذا فأنا اعتذر عن الجلوس ومع السلامة .

قالت هذا وخرجت من الغرفة تشايعها نظرات الجدة الغاضبة وتعليقات ماهر الرخيصة • وما ان وصلت الى غرفتها حتى ألقت برأسها على الوسادة واندفعت تبكي في حرقة وألم ، فلم تكن تعرف كيف يمكنها التخلص من هذا المأزق الجديد ، انها كانت ومنذ البداية تكره ماهر ولا ترضاه زوجا لها لضعف شخصيته وميوعته، اما الآن وقد عرفت من دينها اكثر مما كانت تعرف فقد أصبح من المستحيل ان ترضاه وهو على ما هو عليه من انحراف وتبذل ، وصممت ان تخوضها معركة قوية وصريحة مع الجدة مهما كلفها ذلك من صعاب •

وبعد مضي ساعة صعدت اليها الجدة وهي بين الشدة واللين وقالت لها : لقد تصرفت اليوم تصرف الاطفال يا ورقاء فلم يكن من اللائق بك أن تعاملي ابن عمك هذه المعاملة الجافة وهو يحبك ويحترمك وما جاء الا للتعرف عليك •

قالت ورقاء : ولكنني لا اريد التعرف على امثاله يا جدتي ، انه انسان غير صالح •

قالت الجدة : انك غلطانة يا ورقاء فهو شاب جميل ومثقف وناجح في عمله وليس لديه سوى امه العجوز ، تصوري انه عنده من السيارات الخصوصية ثلاثة •

قالت ورقاء ، ولهذا فهو انسان تافه ، والا فما حاجة فرد واحد بثلاث سيارات ؟

قالت الجدة متجاهلة كلمات ورقاء الأخيرة : انك تعلمين انه تقدم لخطبتك قبل ستة أشهر وقد أجلت الموضوع الى ما بعد تخرجك ، وها هو قد جاء يجدد الخطبة لأنك على ابواب الامتحانات النهائية وهو يقول انه مستعد لتقديم أغلى مهر مع سيارة مرسيدس خاصة بك .

فقالت ورقاء : هل انت جادة في حديثك يا جدتي ؟ هل تحسبين حقا بانني اوافق على الاقتران بساهر ؟ وان آلافه وسياراته سوف تغريني بان ابيع ديني من اجلها ؟

قالت الجدة : وما دخل دينك في الموضوع ؟

قالت ورقاء : ألا تعلمين انه انسان غير ملتزم حتى بالصلاة ؟

قالت الجدة : ان حسابه ليس عليك يا ورقاء ، ان له ربا يحاسبه ويعاقبه يا عزيزتي .

قالت ورقاء : ان الاقتران برجل غير متدين غير وارد في حسابي يا جدتي .

قالت الجدة : ولكنه انسان محترم ، هبيه غير ملتزم

دينيا ولكن عدم التزامه سوف لن يضرك انت يا ورقاء .

قالت ورقاء بشيء من العنف : انك لا تريدين فهم ما أعني يا جدتي ولهذا فانا اقول لك كلمة واحدة وهي كلا ...

قالت الجدة : ولكن لديك فترة للتفكير فأنا اخشى أن تندمي على هذا الرفض .

قالت : كوني مطمئنة فانني لن أندم على ذلك .

قالت الجدة : واذا لم تحصلي على الرجل الذي نسجته افكارك يا ورقاء ؟

قالت : سوف لن اتزوج حين ذاك ، ولكنه غير متعذر المنال يا جدتي .

قالت الجدة : أراك ما زلت طفلة يا ورقاء والا فليس من صالحك ابدا ان ترفضي ماهر من اجل قضايا غير مهمة .

فابتسمت ورقاء بمرارة وقالت : كيف تقولين انها قضايا غير مهمة يا جدتي ؟ انني رفضت سناد لأن اباه قاتل ابي ، أي ان اباه قد اجرم بحق ابي مع ان سناد لم يرتكب أي خطأ في حق أبي أليس كذلك ؟ وماهر هذا هو بشخصه قد اساء لربي وقد اجرم بحقه لكفرانه بالنعم واستهانته

بالعذاب وتجنبه للأطاعة ، وديني هو أثمن شيء عنـدي واعز علي من أبي ، فكيف تريدين مني أن أقرن حياتـي مع انسان يعاديني عن طريق عداء ديني ؟

قالت الجدة بشيء من الضيق : ها انت ما زلت تذكرين سناد بكل خير ولا احسبك الا عازفة عن الزواج بسببه .

قالت ورقاء : اما انني اذكره بكل خير فهو لا يستحق مني ذكر السوء يا جدتي ؟ واما انني عازفة عـن الزواج بسببه فهذا غير صحيح لأن موضوعه قـد انغاق ولعلـه الآن في طريقه للزواج .

قالت الجدة : انني لا اريـد ان تذكرينه بالسوء فمـا وجدنـا منه مـا يسيء ، وانا اعترف لك بأنـه انسان كامل وانه خير من ماهر ولكنه ابن قاتل ابيك ، وماهـر ابن عمك ، ولولا هذا لما قدمت احدا عليه ، وعلى كل حال فانا ارجو ان تراجعي نفسك في موضوع ماهر ولا تسيئي الي والى ذكرى ابيك في رفضه .

★ ★ ★

لم تتمكن ورقاء ان تنام ليلتها تلك ، فقد هزتها هذه الحادثة واسلمتها للحيرة والقلق ، وفـي اليوم الثـاني ذهبت الى معاد فتناست هناك بعض آلامها ، وفكرت ان

تحدثها بأمر ماهر ولكنهـا آثرت ان تستغل الوقت فـي حديث ذي فائدة فقالت : بودي لو اكملت حديث امس يا معاد .

قالت معاد : ولكنني اجدك اليوم غير منشرحة الصدر وأخشى أن يضايقك ذلك .

قالت ورقاء : كلا فانني اريد ان أتناسى الألم بين افكار المعرفة ، فان من اسعد الساعات عندي ساعة نزيدني علما .

قالت معاد : اذن دعينا نبدأ معهم من جديد .

قالت ورقاء : مع من ؟

قالت : مع هؤلاء الذين يقولون بأزلية المادة ويوعزون الخلق الى حركتها فنقول لهم : هبوا اننا قلنا معكم بأزلية المادة فكيف تتمكن ان نفسر انتقال المادة من حال الى حال واختلافها في النتيجة مع ان المادة فـي حالتها البسيطـة واحدة ؟ أو كيف نفسر اختلاف بعض أجزاء المادة عـن البعض ؟

قالت ورقاء : ماذا تعنين بانتقال المادة من حال الى حال

قالت معاد : أقصد تحول المادة مثل الهيدروجين يتطور الى أن يصل الى اليورانيوم ثم اليورانيوم يتحول بعـد اشعاعه الى عنصر الراديوم ثم يتحول الراديوم الى عنصر

آخر وهكذا حتى يصير رصاصا وهنا يقف التطور •

قالت ورقاء : ولماذا يقف التطور ؟

قالت معاد : نعم لماذا يقف التطور ؟ ولماذا يتطور بعض الهيدروجين دون البعض ؟

قالت ورقاء : انهم يقولون ان التطور هو نتيجة لاحتواء كل عنصر على نقيضه •

قالت معاد : ولكن اذا كان هذا صحيحا فهو يعني ان جميع الهيدروجين يحتوي على نقيضه فلمـاذا لم يتطور بمجموعه حتى تتلاشى مادة الهيدروجين وتتحول بمجموعها الى اليورانيوم ؟

فردت ورقاء تقول : نعم لماذا ؟

قالت معاد : اذن فلا بد من وجود عاقل مؤثر وراء تطور المادة ، ان المادة وكما اثبت العلم تتكـون مـن شحنات كهربائية لا غير ، اذن فهي غير عاقلة فكيف امكنهـا ان توجد الخلق بهذا الشكل المنظم المتقن ؟

وسكتت معاد عند هذا الحد وهي تتطلع الـى وجـه ورقاء ثم قالت : ماذا بك يا ورقاء ؟

قالت ورقاء : لا شيء .

قالت معاد : سواء كان هناك شيء أو لم يكن فانا أرجو ان تكوني قوية وقوية جدا .

قالت ورقاء : سوف اكون قوية باذن الله يا اختاه ، وها انا الآن قد ارتحت لجلوسي معك وازددت قوة وثباتا .

قالت معاد : ولكنك شاحبة الوجه قليلا ولهذا فاليك هذا القرص الفوار اشربيه مع نصف كوب ماء ،

فابتسمت ورقاء وقالت : لقد نسيت يا معاد انك طبيبة أبدان وما عدت أعرف عنك سوى طب الروح والفكر .

فضحكت معاد وقالت : انني أعتز بطب الأرواح اكثر من طب الابدان .

قالت ورقاء : والآن فان علي ان أذهب وسوف لن أتمكن ان آتي اليك غدا لأن دوامي يستمر حتى الغروب .

قالت معاد : أما بعد غد فسوف تجدينني وحدي هنا ان شاء الله .

فنهضت ورقاء وهي تقول : اذن الى اللقاء ، وهكـــذا افترقنا على أمل اللقاء بعد يومين ٠

★ ★ ★

مر اليوم الثاني دون ان تتحدث الجدة مع ورقاء فـــي موضوع الخطبة ، وكانت ورقاء تبدو حزينة وقد عادت الى البيت مرهقة وصعدت الى غرفتها مبكرة ، وفي صباح اليوم الثاني حينما كانت تقف تنتظر الباص وقفت امامها سيارة مرسيدس فارهة ونزل منها ماهر وهو يقول : صباح الخير يا ورقاء ، فرصة سعيدة ان اتمكن من ايصالك الى الكلية ٠

فلم تغير ورقاء مـــن وقفتها شيئا وانمـــا أجابت بهدوء قائلة : كلا اشكرك يا استاذ ٠

قال ماهر : تفضلي واركبي ، ارجوك ٠

فردت باقتضاب : شكرا فانني انتظر ٠

قال هل تنتظرين أحدا ؟

قالت : كلا بل انني انتظر الباص ٠

فضحك ماهر وقال باستغراب : تنتظرين الباص وتمتنعين عن ركوب سيارة مرسيدس ٠

قال هذا بافتخار واعتزاز زاد من احتقار ورقـاء له ، فأدارت وجهها ناحية وهي تقول : ارجـو ان لا تتعـب نفسك بالتأخر فانني سوف لن اركب ٠

قال : ان التعب في سبيلك راحـة واعتبـري السيارة سيارتك منذ الآن واركبي فيها دون مضايقة ٠

وهنا وصل الباص فأسرعت نحوه ورقاء وهي تقول : ها هو الباص قد وصل مع السلامة ، ثم ركبـت الباص تاركة ماهر يتطلع الى السيارة باعجـاب ويستغرب عزوف ورقاء عنها ٠

وقـد أثرت هـذه الحـادثة فـي نفسيـة ورقـاء فذهبـت ذلـك اليـوم الـى معـاد وهـي فـي حالة نفسيـة سيئة وكـان موعدهـا معهـا فـي البيت ولهذا ذهبـت رأسا الـى هنـاك فوجـدت معـاد مشغولـة بالتنظيف والترتيب ، فحاولت ان تشاركها العمل ، ولكن معادا منعتها عن ذلك لأنها لاحظت عليها آثار الشحـوب والارهاق ، وما ان انتهت من اعمالها حتى عرضت علـى ورقاء ان تجلس قليلا تحت ظلال الأشجار ، فجلست ورقاء جلسة الحائر الكئيب ٠

فقالت لها معاد : مالك يا ورقاء ؟

قالت ورقاء : انني غير مرتاحة يا معاد •

قالت معاد : ان هذا واضح عليك يا ورقاء ، ولكن ألم تتفق ان تكوني أقوى من الألم ؟

قالت ورقاء : انني قوية امام المهمات والحمد للـــه ، ولكن المضايقات البسيطة تتعبني يا اختاه ، فانا منذ مدة أعيش مع سلسلة احراجات ، اذ قد تقدم لخطبتي ابن عمي ـ أي ابن عم أبي ـ وقد ساندته جدتي اذ أنه في نظرها متكامل الجوانب : شاب وجميل وغني ومثقف •

وسكتت ورقاء عنـــد هـــذا • فتساءلت معاد باهتمام قائلة :

ومتدين ؟

قالت ورقاء : كلا وهذا هـــو مصدر المضايقات التـــي اعانيها لأنني وبطبيعة الحال قد رفضته نهائيا ولكن جدتي لا تفتأ تناقش الأمر بالشدة حينا وباللين أخرى، وهو ما زال يحاول مضايقتي وفرض وجوده علي وهذا هو مـــا يتعبني نفسيا ويجعلني أعيش في صراع مستمر •

وهنا عادت معاد تسأل في لهفة أيضا قائلة : صراع ؟ مع من يا ورقاء ؟

قالت : صراع مع جدتي ومع مضايقاته هو •

قالت معاد : لقد خشيت ان يكون الصراع مع نفسك يا اختاه .

قالت ورقاء : كلا فان الأمر عندي واضح ولا يستوجب أي تفكير او صراع .

قالت معاد : وهذا هو المأمول منك يا ورقاء ، وان عليك ان تتحملي بعض المضايقات الى فترة قصيرة تتخلصين في مقابلها من مضايقات طويلة وطويلة جدا .

قالت ورقاء : تقصدين مضايقات الزواج من رجل غير متدين ؟

قالت معاد : نعم لأن تلك المضايقات تمد جذورها في الحياة الأولى والثانية وتؤثر على المستقبل القريب والبعيد.

قالت ورقاء : ولكن كيف يمكنني ان اقنع جدتي بوجهة نظري ؟

قالت معاد : لا احسب انها سوف تقتنع بوجهة نظرك يا ورقاء لأنها تنظر الى الموضوع بمنظارها الخاص ولهذا عليك ان تستدرجها عاطفيا حتى تلين وتتنازل عند رغبتك.

قالت ورقاء : انها شديدة لا تؤثر فيها العواطف ولكنني سوف اقاوم بأي شكل من الاشكال .

قالت معاد : ولكن ما الذي يدعوها الى هذا الاصرار

يا ترى ؟ وأي مكسب لها فيه ؟

فسكتت ورقاء ولم تعرف كيف تجيب لأنها كانت تخمن ان من اهم اسباب اصرار جدتها هو ابعادها عن معاد ، ولكن هل كان يمكنها ان تقول لمعاد ذلك ، لهذا سكتت وبقيت ساكتة ، فعادت معاد تقول : لا شك ان هناك أسبابا تدعوها الى هذا الاصرار ، فان لكل شيء سببا يا ورقاء •

وهنا أرادت ورقاء ان تبدل مجرى الحديث فقالت : نعم ونتيجة لهذا (قاعدة ان لكل شيء سببا) يضطر منكروا الله تبارك وتعالى ان ينسبوا الخلق الى المادة مع عجزها عن ذلك ، لأنهم لا يتمكنون ان يقولوا ان هذا الخلق وجد بدون سبب •

قالت معاد : نعم وهذا هو ما يشترك فيه الماديون والالهيون مع اختلاف السبب الذي يؤمنون به •

قالت ورقاء : وكيف ؟

قالت معاد : اقصد اننا نحن وهم تؤمن — :

أولا — بان الكون مخلوق أي حادث ، وان هناك مؤثرا تنتهي اليه أسباب الوجود •

ثانيا ـ بأن وجود الكون حقيقة لا جدل فيها خلافا للمثاليين الذين يشككون في وجود كل شيء .

وثالثا ـ هي باحساس الانسان بانه يستند في وجوده الى قوة أثرت في تحقيق هذا الوجود على اختلاف في تأويل هذه القوة .

وهنا قالت ورقاء : وهل ان الماديين يعترفون في كتبهم بهذه الحقائق ؟

قالت معاد : نعم ومثال ذلك ما جاء في كتاب (نقد الفكر الديني) قوله (في الواقع علينا ان نعترف بكل تواضع بجهلنا حول ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون) .

قالت ورقاء : اذن فان هذه حقائق يشترك فيها الماديون والالهيون ؟

قالت معاد : نعم ولكن الماديين يرجعون السبب الى المادة وحركتها ، والالهيون يرجعونه الى الواحد القهار .

قالت ورقاء : ولكنهم كيف يدعون أزلية المادة مع ما ثبت من امكان تغيرها والأزلي لا يمكن له أن يتغير ؟

قالت معاد : نعم ان الأزلي لا يمكن له ان يتغير يا

ورقاء ، لأن التغيير يحتاج الى بداية وكل ما يحتاج الى بداية معرض للنهاية •

قالت ورقاء : اذن فان ما اثبتته الفيزياء من أن الذرات مركبة من عدة كهارب ودقائق وانها مــن الممكن لهــا ان تتحلل او تتجزأ الى طاقات يثبت عــدم أزلية المــادة لأن الأزلي لا يقبل التركيب ؟

قالت معاد : ولكن هل تعلمين لماذا الأزلــي لا يقبــل التركيب ؟

لأننا حينما نقول أن الأزلي لا يقبــل التركيب نقصد ، اننا لو سألنا عن هذا المركب كيف وجد ، وهل كان مركبا في الأزل أم ان اجزاءه ركبت بالتدريج ، وهل حدث هذا اولا أم وجدت أجزاؤه قبله ، فماذا سوف يكون الجواب؟

قالت ورقاء : هبيهم يقولون ان أجزاءه قد حدثت قبله؟

قالت معاد : اذن فان معنى ذلك انه حادث وليس أزليا لأن اجزاءه سبقته في الحدوث وهيأت الأسباب لحدوثه •

قالت ورقاء : واذا قالوا ان حدوثه كان مواكبا لحدوث أجزائه أي أنه واجزاءه حدثا معا ومرة واحدة ؟

قالت معاد : عند ذلك نقول لهم : أليس من الممكن أن

تتجزأ عنه هذه الأجزاء او تنفصل عن طريق التحول او التطور ، كما تحلل الماء الى اوكسجين وهايدروجين وكما انتقل الهايدروجين الى اليورانيوم ، وهذا امر محتمل الحدوث لأن كل مركب معرض للانحلال ثم للفناء نتيجة تحلل مركباته وعند هذا نعود لنكرر القاعدة الثابتة التي تقول ان كل ما يجوز فناؤه تستحيل ازليته .

قالت ورقاء : وما هي القاعدة التي تستخلص منها هذه النتيجة (نتيجة ان ما يجوز فناؤه تستحيل ازليته ؟) .

قالت معاد : لأنه اذا كان أزليا فان معنى الأزلي هو ان وجوده لم يفتقر الى علة او سبب لأنه هو علة ذاته بمعنى من المعاني ، ولهذا فهو لن يتعرض ايضا لعلة تحول بينه وبين علة وجوده فتسبب فناءه ، على خلاف الذي يفتقر الى علة لايجاده ، فهو متى ما افتقد تلك العلة تعرض للفناء ، ولعلك تعلمين ان العلم اثبت اخيرا امكان تجزئة الذرة !.

قالت ورقاء : اذن فان الذرات أي المادة التي ينادي بها الماديون ويقولون انها الأصل الأول للحياة ، هذه الذرات يمكن تجزئتها لأنها مركبة والمركب ليس مستحيل التجزئة؟

قالت معاد : وبالتالي : فهو ليس أزليا اذ أنه معرض للفناء عند افتقاد عناصره لأنه محتاج الى علة لوجوده وتلك العلة هي الحفاظ على أجزائه ، والأزلي لا يحتاج الى علة لوجوده .

قالت ورقاء : ثم أليس ان في النظرية العلمية التي ثبتت اخيرا (نظرية الاتنقال الحراري المستمر من طاقة حرارية عالية الى طاقة حرارية اقل حرارة) دليل على عدم ازلية الكون ؟

قالت معاد : طبعا لأن مجرد الايمان بوجود تغيير في مستويات الطاقة الحرارية في الكون يجعلنا نعرف ان الكون غير ازلي ، اذ لو كان ازليا لتساوت الحرارة في كل اجزائه منذ امد طويل جدا ولتعذرت الحياة نهائيا منذ ملايين السنين .

قالت ورقاء : وكذلك في ما اثبته العلم من اتساع الكون ، والنسب التي أعطاها لذلك لدليل على عدم ازلية الكون ، اذ انه لو كان ازليا وهو على هذه النسب من الاتساع لأصبحت المسافات بين الكواكب لا نهائية لأنها تتسع منذ الأزل ، اذن فهو مخلوق .

قالت معاد : وخالقه غير مخلوق وهو أزلي غير معرض للفناء كالمادة ألا وهو الله تبارك وتعالى .

قالت ورقاء : يؤسفني ان علي أن اذهب الآن وسوف انقطع عنك خلال الاسبوع القادم لأن الامتحانات قــد بدأت اليوم واريد ان اتفرغ للدراسة •

قالت معاد : اتمنى لك الموفقية يا اختاه وسوف انتظرك بعد اسبوع ان شاء الله •

★ ★ ★

مرت أيام الامتحانات وقــد حاولــت ورقاء خلالها ان تتفرغ الى دروسها بشكل تام ، وابعدت عــن افكارهــا احاديث ماهر وتوابعها وفعلا فقد تمكنت من اجتيازهــا بتفوق يدل على النجاح وفي آخر يوم عرجت في طريق عودتها على معاد فقيل لها انها مشغولة ، فتركت لها ورقة تخبرها بانتهاء امتحاناتها وتقول لها أنها سوف تزورهــا عصر غد ، ثم عادت الى البيت فاستقبلتها جدتها مشرقــة الوجه وقبلتها بحنان وهي تقول : الحمد لله الذي ابقاني حية حتى رأيتك مهندسة •

فابتسمت ورقاء وقالت : ولكنني لم احصل على النتيجة بعد يا جدتي •

قالت الجدة : انها مضمونة النجاح يا عزيزتي •

قالت ورقاء : أرجو ذلك ، ثم صعدت الــى غرفتهــا

فوجدت هناك باقة زهر كبيرة في اناء من الكريستال الثمين وقد تربعت وسطها علبة بيضاء صغيرة كتبت فوقها هذه الكلمات (هديتي لك بمناسبة انتهاء الامتحانات مع وافر حبي .. ماهر) .

فاستغربت ورقاء هذه الهدية وخمنت انها بداية لموقف حاسم ، ولهذا فقد نزلت الى جدتها وقالت لها بهدوء : من اين جاءت باقة الورد هذه ؟

قالت الجدة : لقد بعث بها الاستاذ ماهر مع السائق وقال انه سوف يأتي مع امه في المساء .

قالت ورقاء وهي تحاول ان تبدو طبيعية : وهل تعرفين اين يقع بيت هذا الاستاذ ؟

فاستغربت الجدة هذا السؤال ثم قالت : كلا ، انا لا اعرف موقع بيته الجديد ، ولكن لماذا تسألين ؟

قالت : لكي اعيد اليه باقة الزهر هذه .

قالت الجدة في هلع : تعيدين باقة الزهر ؟ هل انت مجنونة يا ورقاء؟ هل رأيت الخاتم الماسي الذي في العلبة؟

قالت ورقاء : انني لم افتح العلبة ولا شغل لي بها ولن اقبل هذه الهدية بأي شكل من الأشكال .

قالت الجدة : لا شك بأنك مجنونة يا ورقـاء ، ليس هناك انسانة عاقلة تتصرف هـذا التصرف المشين ، انـه ابن عمك وخطيبك في الوقت نفسه .

وهنا اجابت ورقاء بشيء من العنف قائلة : ماذا قلت يا جدتي ؟ من هو خطيبي ؟

قالت : ماهر .

قالت : ومتى أصبح خطيبي مع انني لـم اوافق علـى قبوله ابدا ؟

قالت الجدة : فكري قبل ان تقطعي بالأمر يا ورقاء ، انه انسان ممتاز يليق لك من جميع الجهات .

قالت ورقاء : لقد فكرت بما فيه الكفاية وليس لدي الا الرفض .

قالت الجدة : ولكن ماذا تأخذين عليه يا ترى ؟

قالت ورقاء : أولا وبالذات كونه غير متدين .

قالت : يمكنك هدايته بعد ذلك .

قالت : واذا لم يهتد ؟

قالت : دعيه هو وشأنه وانت وشأنك ، انك لن تنامي

معه في قبره يا ورقاء ، تنعمي بخيراته ودعيه يتعذب وحده في النار •

قالت ورقــاء : ان هذه لن تكون حياة زوجية بل شركة تجارية استغلالية لا اكثر ولا اقل •

قالت الجدة : اذن ؟

قالت ورقاء : اذن سوف لن اوافق •

قالت الجدة : وهديته ؟

قالت ورقاء : ان جميع هداياه وسياراتــه وعماراته لا تساوي عندي شيئا مــا دام هو بشخصه يفتقــر الــى الدين ، اعيدي اليه هديته وقولي له ان يفتش عن عروس يليق بها وتليق به •

قالت الجدة في غضب : انني لن اقول شيئا من هذا ، اعيديها انت اليه اذا اردت •

وفي المساء ، حضر ماهر وحده ، فرحبت به الجــدة وجلست معه فــي غرفــة الاستقبال ، وكأنها ارادت ان تقول شيئا تمهد فيه لما قد يصدر عن ورقاء فقالت : انني اشكرك جدا لهديتك الثمينة يا استاذ ماهر •

قال : انها اقل الواجب تجاه ورقاء ، ارجو ان يكون الخاتم على قياسها ؟

قالت الجدة : الحقيقة ان ورقاء ما زالت طفلة ولهـذا فهي في حاجة الى تدرج في الترويض •

قال : كيف ؟

قالت : تصور انها لم تلبس الخاتم بيدها لحد الآن لأنها تقول بأنها ما زالت تعبانة من الامتحانات •

قال : ان من حقها ان تستريح فترة ، ونحن لا نريد فعلا سوى الموافقة المبدئية ثم تقديم نيشان الخطوبة ، وقد اخترت لذلك طقما ثمينا من الماس وجدته ملائما لشباب ورقاء وجمالها ، وما اتيت الا من اجل تحديد الوقت المناسب لتقديمه •

فارتبكت الجدة وقالت : سوف اتصل انا بكم لتحديد الوقت المناسب بعد ان اقنعها بالقبول •

قال ماهر : عجيب أن تكون في حاجة الى ترويض واقناع ، انه امر طبيعي وبديهي الصلاح ، ولكنها وعلى ما يبدو ما زالت صغيرة •

فتأثرت الجدة لهذا الاسلوب في الكلام ولكنها استمرت على خط المجاملة ولهذا قالت : صحيح انها ما زالت صغيرة ولكنها عاقلة وحكيمة والحمد لله ، ولعل لديها وجهة نظر معينة سوف اتمكن من تصحيحها خلال أيام •

وقبل ان تنتهي الجدة من كلماتها انفتحت الباب ودخلت ورقاء وهي تحمل بيدها علبة الخاتم الصغيرة البيضاء ، فخفق قلب الجدة بعنف وغرها الارتباك لما سوف يحدث ، اما ورقاء فقد سلمت وجلست على اقرب كرسي من الباب .

فنهض ماهر لاستقبالها ورحب بها بحفاوة ، وما ان استقربها الجلوس حتى التفتت اليه وهي تقول : انني اشكرك على باقة الزهر التي ارسلتها صباح اليوم يا استاذ وسوف اتقبلها كتحية طيبة من ابن عم طيب ، اما هذه العلبة فانا اعتذر عن قبولها لعدم وجود مناسبة لها .

فبهت ماهر لحظة ثم قال في تلعثم : ماذا تقصدين بهذا يا ترى ؟

قالت : أقصد بانك ابن عم ابي فلتبق علاقتنا على هذا المستوى لا اكثر ولا اقل .

قال : صحيح انني ابن عم ابيك ولكن أليس من حقي أن اطمع بتعميق هذه العلاقة ؟

قالت باقتضاب : كلا .

قال : هل تسمحين لي أن أسأل عن السبب، لقد لاحظت منك نفورا منذ البداية فهل قصرت في شيء او هل أسأت اليك بشيء ؟

قالت : كلا انـك لم تقصر في حقي ولم تسىء الي ولكن رفضي هذا من صالحك وصالحى يا استاذ .

قال : كيف عرفت انه من صالحي يا ورقاء ؟

قالت : لأنني سوف لن أكون القرينة الحقيقية لك يـا استاذ ، ان هناك فارق مهم لا يمكننا تجاوزه في الحيـاة الزوجية فلنكن ابناء عم فقط وهذا يكفي .

قال : اذا كنت تفكرين بالفارق المادي فانا لا يهمنـي ذلك من قريب او بعيد ، انني انسى حينما تصبحين زوجتي بان هناك فوارق في الحالة المعاشية ، وسوف اضع جميع ما املك امامك تتصرفين فيه كما تشائين .

فزادت هذه الكلمات من غيظ ورقاء ، ولكنها جاهدت أن تسيطر على اعصابها اكثر ولهذا ردت بهدوء قائلـة : انك لم تستوعب فهم ما اردت ان اشير اليـه ، فالفارق الذي ذكرته ليس هو الفارق المادي .

فقاطع حديثها قائلا : اذن فهو فارق اجتماعي ؟ ولكننا متجانسون فنحن اولاد عم وكل منا يحمل شهادة مهندس.

فهزت ورقاء رأسها في استنكار وقالت بشـــيء مـــن الحدة : ألا تريد أن تتركني اكمل حديثي يا استاذ ؟

قال : عفوا تفضلي .

قالت : ان الفارق المهم الذي اعنيه هو الفارق الدينـــي يا استاذ ، قالــت هذا وسكتت تنتظر ردود الفعل .

فسكت ماهر لحظة ثم تنحنح يداري بذلك ارتباكـــه ، واغتنمت الجدة هذه الفرصة لتدخل في النقاش فقالت :

ان الفارق الديني غير مهم فهو لن يجبرك على التغيير من وضعك يا عزيزتي أليس كذلك يا استاذ ماهر ؟

وكانت الجدة قد اعطت لماهر بحديثها هـــذا فرصـــة لاستعادة وضعه الطبيعي حيث أجاب قائــلا باندفاع : طبعا ، طبعا ، فأنا لا اريد ان امنعها عن شيء تريده هـــي ابدا واذا كان هذا هو المانع فقد ارتفع .

فابتسمت ورقاء في مرارة وقالت : انني لا اريـــد ان اطيل الحديث ولكنك تضطرني الى ذلك الآن دعني أسألك سؤالا واحدا : ما هو مفهوم الحياة الزوجية عندك ؟

فظهرت الحيـــرة علـــى مـــاهر لأنه لـــم يكـــن قـــد فكر بمفهوم خاص للحياة الزوجية من قبل ولهذا تـــردد

لحظة ثم قال : حياة زوجية سعيدة !

قالت : انك لم تذكر مفهومها عندك وليس ما ذكرتـه سوى نتيجة لتحقيق ذلك المفهوم •

فضحك في بلاهـة وقال : اذن فأي مفهوم تريدين ؟

قالت ورقاء : انا لا اريد شيئا ولكن اريـد ان اعرف نظرتك عن طبيعة الحيـاة الزوجية •

وهنا تدخلت الجدة لتنقذ الموقف من جديـد فقالت : دعك من هذا الكلام يا ورقاء ، انه ابن عم ابيك وهـذا يكفي •

فاستدارت ورقاء نحوها وقالت : ارجو ان تفهمي مـ أعنيه يا جدتي : فاذا كان هو لا يريد ان يفهم فافهمي انـ على الاقل ، ان الحياة الزوجية ليست شركة مادية ، و ندوة اجتماعية • وانما هي وحده روح وفكر ومصيـر وهذا ما لا يمكن ان يتحقق مع اختلاف السلوك وتبايـن وجهات النظر ، وما دمنا لا نستطيع ان نلتقي فكريا فلن نستطيع ان نلتقي عاطفيا ، وعدم الالتقـاء العاطفي هـ اوضح دليل لفشل الحياة الزوجية ، ولهذا فانا لا اريـ لنفسي و لااريد له ايضا ان يرتبط بحياة زوجية فاشلة.

وسواء فهمت الجدة حديث ورقاء او لم تفهم فانها ر

عليها قائلة في الحاح : ان في امكان كل منكما ان يبقى على ما هو عليه •

فتأففت ورقاء وقالت : ان هذا هو ما اعنيه من الفصام الفكري والعاطفي •

قالت الجدة : أوليس من الممكن ان تتقارب وجهات النظر بعد الزواج ؟

قالت ورقاء : كلا ياجدتي لأن ذلك التقارب يستوجب اعطاء تنازلات من الطرفين وانا غير مستعدة لاعطاء أي تنازلات مهما كانت بسيطة ، ان ديني اهم شيء عندي لأنه هو الذي يحدد مستقبلي في الغد القريب •

وهنا وجد ماهر مجالا للدخول في النقاش فقال نحذلقا : عفوا يا ورقاء ولكن أي دخل لدينك في استقبل ومستقبلك مضمون كمهندسة ميكانيكية سواء كنت متدينة أم لا ، كما ضمنت أنا مستقبلي كمهندس معماري مع عدم التزامي بالدين ؟

قالت ورقاء : ها أنت لا تريد أن تفهم ما أقول ، ان المستقبل الذي اعنيه هو مستقبلي بعد الموت ، وهذا ما لم تضمنه انت ، وما اريد ان اضمنه انا مهما استطعت، اني اخطط لمستقبلي ذاك اكثر مما اخطط لمستقبلي كهندسة لأن هذا المستقبل مهما طال فهو محدود الأمد،

اما ذاك المستقبل فهو ما لا نهاية له .

فران شحوب باهت على وجه ماهر وكأن كلمات ورقاء الاخيرة قد أثرت عليه ، ولكن الجدة ارادت حسم النقاش، فتوجهت نحو ورقاء قائلة بلهجة آمرة : اذهبي الآن الى غرفتك فان لدينا مجالا طويلا لتدبر الأمر .

ولما لم تتحرك ورقاء تلحف عليها قائلة : قومي واذهبي، كفاية كلمات صبيانية يا ورقاء .

وهنا ضحك ماهر ثم قال : انها معذورة فقد ربيت تربية معقدة منطوية ، وانا أرجو ان افتح لها بيدي هاتين ابواب الحياة السعيدة ، حياة الانطلاق والحرية ، انها ولا شك واقعة تحت تأثير سيء لعله من صديقة أو صديق .

ولم يفت الجدة ما عناه ماهر بكلمته الأخيرة فردت عليه في حدة قائلة : ارجوك ان تسحب كلمتك الأخيرة يا استاذ ، ان ورقاء شريفة وطاهرة وليست ممن يصادق الرجال ، ثم التفتت الى ورقاء تقول : قومي واذهبي الى غرفتك يا ورقاء .

فنهضت ورقاء وهي مغضبة ثم ودعتهم باقتضاب وذهبت الى غرفتها حيث جلست على حافة السرير تنتظر

انصراف ماهر وهي ترتجف من شدة التأثر ٠

أمـا الجـدة فقد بـدأت بالاعتذار مـن ماهر وكأن هذا الموقف من ورقاء دفع ماهر الى مزيد مـن الاصرار وقد لبس لذلك لبوس العناد ، واحس بالرغبة في سحق هذه التي رفضته ورفضت معه ذهبه وعماراته وسيـاراته ولهذا صمم ان يبدو امام الجـدة كانسان لين الجانـب صبور على الأذى فأجابها على كلمات الأعتذار قائلا : لا عليك يا جدتي انني سوف احاول اقناعها باساليبي الخاصة، وحاولي انت مساعدتي ايضا ، واتصلي بي عند اول بادرة اقتنـاع ٠

قال هذا ثم ودعها وخرج وقـد صمم ان ينتقم مـن ورقاء وان يقف بالمرصاد لكل من يتقدم لخطبتها فاما أن يدعيها لنفسه واما أن يشوه سمعتها عنده حتى يضطرها أخيرا الى التنازل له وعند ذلك يرفضها كما رفضته الآن٠

أما ورقاء فقد بدأت تشعر بالراحة نسبيا لأنها حسمت الموضوع وتخلصت من ماهر ، وقـد حاولت ان تنسـى المضايقات التي حدثت معتبرة نفسها منتصرة في هـذه الجولة ، ولهذا فقد نزلت من غرفتها في صباح اليـوم الثاني وهي منشرحة الصدر مشرقة الوجه الشيء الـذي

استغربت له الجدة وكانت تتوقـع ان تجدها في حـالة نفسية سيئة ، وكانت ورقاء تتعجل الذهاب الى معاد لكي تحدثها بما جد في الامر ، ولكنها عندما ذهبت اليها عصرا وجدتها مشغولة مع حـالة مرضية مستعجلة فعادت الى البيت واذا بجدتها تستقبلها عنـد الباب قائلـة بصوت خافت : اصعدي الى غرفتـك دون ان يصدر عنـك اي صوت .

فبهتت ورقاء وقالت : لماذا ؟ ما الخبر ؟

قالت الجدة : صه اصعدي بسرعة وسوف اصعد اليك فيما بعد ، اياك ان تنزلي قبل ان اناديك .

فصعدت ورقاء الى غرفتها وهي في حالة قلق وارتباك فقد أوحى اليها منظر جدتها بوجود احداث غير مريحـة، وكلما ضربت اخماسا بأسداس لم تتمكن ان تقف عنـد فرض معقول ، وتعلقت عيناها بعقارب الساعة تستحثهـا على المسير ولكنها كانت تأبى ان تتحرك وكأنها تحجـرت في مكانها من الصفحة السوداء .

وبعـد أكثـر مـن سـاعة سمعـت صوت البـاب ينغلق ثم صوت جدتها يناديها الى تحت ، فنزلت علـى عجل ، فاستقبلها وجه الجدة كئيبا شاحبا فأرعبها ذلـك

وقالت في فزع : ماذا بك يا جدتي؟ ماذا حدث بالله عليك؟

قالت الجدة : هل تعلمين من كان هنا قبل دقائق ؟

قالت ورقاء : من أين لي ان اعلم يا جدتي ؟

قالت : انه حامد افندي !!

فبهتت ورقاء وقالت باستنكار : حامد افندي ؟ هــذا الاقطاعي المعروف ؟

قالت الجدة : نعم ، هذا الذي شردنا عن ارضنا واستغل خيراتنا •

قالت ورقاء : وماذا كان يريد ؟

قالت الجدة : لقد جاء يطالب بحقه فــي قطعة الارض التي بحوزته ، وحقه في هذا البيت لأنــه رهن عنــده بأوراق رسمية ولا توجد اوراق رسمية تثبت سداد الرهان لأنها سرقت من المعمل كمــا ذكرت لــك سابقا ، وهــو يقول : انه ما صبر علينا الا انتظارا لتخرجك من الكليــة ولهذا فهو الآن يطالب بحقه وتصفية الحساب الا اذا •••

وسكتت الجدة وكأنها لم تجرأ ان تزيد على ذلك شيئا•

فقالت ورقاء في لهفة : الا اذا ماذا يا جدتي ؟

قالت الجدة : اذا وافقنا على شيء ؟

قالت ورقاء وهي تتلفت حولها في حركة لا اختياريــة

وكأنها تطلب النجدة ، قالت : الا اذا وافقنا على أي شيء يا جدتي ؟

قالت الجدة : على قبول ابنه ناصر صهرا لنا فهو حين ذلك سوف يعيد الينا أرضنا كاملة ويعترف لنا بهذا البيت .

فأحست ورقاء وكأن صاعقة قد انقضت على رأسها وقالت في هلع : وماذا قلت له يا جدتي ؟

قالت الجدة : لقد أسعفني الله بجواب أنقذ الموقف مؤقتا .

قالت ورقاء : وكيف ؟

قالت : لقد قلت له بأنك معقودة ولم يكن يسعني غير ذلك لكي لا اثير غضبه علينا ولا ادع له مطمحا فيك بعد اليوم .

قالت ورقاء : ولكن كيف قلت له هذا وسوف ينكشف بطلانه من بعد ؟

قالت الجدة : ولهذا أصبح محتما عليك أن تقبلي بماهر في أسرع وقت ، فان ماهر مهما كان هو أفضل من ابن حامد أفندي الشاب الماجن السكير .

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة ثم أطرقت برهة رفعت رأسها بعدها وهي تقول : كلا انني لن اقبل بماهر مهما

كان ، دعيه يأخذ منا كل شيء ، انني اقدم ارضي وبيتي فداء رخيصا لديني يا جدتي •

وهنا ثارت الجدة ثورة عاتية واندفعت تلطم وجهها وتدق صدرها ، وتنادي بالويل والثبور وتكيل لورقاء مختلف كلمات السباب وتتهمها بأقسى التهم •

فحاولت ورقاء تهدئتها ولكنها لم تتمكن من ذلك الا بعد جهد ثم صعدت الى غرفتها وارتمت على فراشها وهي في أسوأ حال •

★ ★ ★

اصبح صباح اليوم الثاني ولم تنزل ورقاء من غرفتها فحسبت الجدة انها نائمة ، ولهذا تركتها حتى ساعة عانية من الصباح ثم صعدت اليها لتوقظها وفتحت باب الغرفة ودخلت وانحنت عليها تناديها ، فهالها أن رأت ورقاء غارقة في بحران من الحمى وقد انصبغ وجهها بزرقة قاتمة وأخذت أنفاسها تتلاحق لاهثة كاوية، فنادتها قائلة : ورقاء ! ورقاء •

ففتحت ورقاء عينها ونظرت الى جدتها نظرات تائهة •

فقالت الجدة : ماذا بك يا ورقاء ؟ يا مهندستي الصغيرة ؟

قالت ورقاء بصوت واهن متقطع : لا ادري •

قالت الجدة : هل أستدعي لك طبيبا ؟

قالت ورقاء : نعم : فانني لست على ما يرام •

فنزلت الجدة وهي حائرة ماذا تصنع ، ثم خطر لها ان تتصل بماهر وتطلب منه احضار طبيب . فاتصلت به في مكتبه وقالت له في لهفة : ارجوك يا استاذ ماهر ، أنقذ ورقاء فانها مريضة جدا •

فجاءها الجواب في برود قائلا : ماذا بها ؟

قالت : انها مريضة وفي حاجة الى طبيب •

قال : ولكن الأطباء ليسوا في عيادتهم صباحا •

قالت : ولكن فتش فقد يكون هناك طبيب غير موظف•

قال : ولكنني مشغول وعندي الكثير من المراجعين ، أجلي الموضوع الى العصر ، واذا كانت لا تزال في حاجة الى طبيب فاتصلي بي مرة ثانية •

فلم يسع الجدة الا ان تغلق السكة وهي بين اليأس والغضب وصعدت الى جوار ورقاء وهيأت لها بعض المجربات ، ولكن حماها كانت ترتفع ووضعها لا يوحي

بأي تحسن حتى حان العصر فأعادت الاتصال بمكتب ماهر فقيل لها انه غير موجود فقالت في توسل : هــل تعلمون اين هو ؟

قالوا لها : انه سافر في مهمة له في خارج البلد وسوف لن يعود اليوم ، فألقت سماعة التليفون وعادت الى جوار ورقاء تقرأ لها بعض الأدعية مع بعض آيات مــن القرآن الكريم وما ان حل الليل حتى أحست ان ورقاء قد فقدت شعورها وان جسمها قد أخذ يتشنج وقد بدأت تهــذي بكلمات غيرمفهومة فطار صوابها وعادت الــى التليفون تطلب فيه ماهرا فلم تحصل له على أثر وحاولت ان تحصل على سواه ولكنها لم تتوصل الى نتيجة ، فخطر لها خاطر انكرته على نفسها وأهملته وعادت الــى ورقاء فسمعت أنينها يختلط بالهذيان ، ورأت جسمها وهو يتشنج بشكل مرعب ولم يسعها حين ذاك الا ان تقول : لعنة الله علي ، لقد قتلت ابنتي بيدي ، ولكن علي الآن ان انقذها بـأي شكل ، نعم بأي شكل ، وعادت تنزل الى جهاز التليفون وأدارت أرقاما معينة وكأنها كانت تغالب نفسها وتريد ان تحقق امرا قبل ان تتردد فيه ، وكانت تطلب المستشفــى ، الطابق السابع فردت عليها من هناك احدى المرضات فقالت لها متوسلة :

انني اريد ان اكلم الدكتورة معاد .

قالت المرضة : ولكنها فوق في غرفتها ولعلها نائمة .

قالت الجدة : ناديها ارجوك يا ابنتي فانني مضطرة اليها.

قالت الممرضة : اعطيني رقم تليفونك لكي اقول لها ان تتصل بك هي فان الخط لا يمكن ان يبقى مشغولا مدة من الزمان.

فأعطتها رقم التليفون واغلقت السكة وصعدت الى جوار ورقاء ولم تمض دقائق حتى رن جرس الهاتف فاسرعت اليه الجدة ورفعته وهي تقول ، ألو ، من ، الدكتورة معاد ؟

قالت معاد : نعم ، انني معاد ، ولكن من انت ؟

قالت : انني جدة ورقاء ، ولقد لجأت اليك في خصوص ورقاء ، انها مريضة ومريضة جدا .

فردت معاد تقول : ورقاء مريضة ؟ ماذا بها ؟

قالت الجدة وهي تبكي : لا ادري : أسرعي اليها وأنقذيها ، ان ابنتي سوف تموت فارحميها بالله عليك يا معاد .

قالت معاد : انني آتية حالا يا جدتي ، ولكن اين هو بيتكم ؟

فأعطتها الجـدة عنوان البيت وعـادت الـى جانـب ورقاء وقد تجدد لديها بعض الأمل واخذت تتابع عقـارب الساعة بلهفة وقلق ، ولم تمض فتـرة طويلـة حتـى رن جرس الباب فاندفعت اليه وفتحته لتجد معاد ، ونسيـت الجدة في غمرة قلقها على ورقاء كـل احقادها ولم تعـد تذكر سوى انها امام طبيبة سوف تعيد اليها ابنتها ورقاء، ولهذا فقد استقبلتها بالترحاب وقادتها الى غرفة ورقاء •

فظهر التأثر على معاد وهي تشاهد ورقاء في هذه الحالة ثم طلبت من الجدة ان تعطيها منديلا لفته حول رأس ورقاء ثم قالت للجدة :

هل تسمحين لي ان استدعي معي طبيبا يا خالـة فـان الحالة شديدة على ما يبدو •

قالت الجدة : ولكن اين سوف تجدين الطبيب في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ ارجوك لا تتركيها هكذا •

قالت معاد : انه ينتظر في السيارة امـام الباب فهـل تسمحين له بالدخول ؟

قالت الجدة : طبعا ، طبعا ، ما دام فيه شفاء ابنتـي •

فنزلت معاد وعادت مع الطبيب، واشتركا معا في الفحص والتشخيص وبعد فترة توجهت معاد نحو الجدة قائلة :

يبدو انها مصابة بالحمى القرمزية وهي في حاجة الى بعض الاسعافات التي لا تتواجد في البيت .

فبهتت الجدة وقالت : اذن ؟

قالت معاد : اذن فهي في حاجة لأن تنقل الى المستشفى فهل توافقين ؟؟

فذعرت الجدة ودقت على صدرها وهي تقول : اذن فهي مريضة جدا يا دكتورة ؟ الويل لي ما أشقاني فقد قتلت ابنتي بيدي .

وعادت معاد تقول : هل تسمحين لنا بنقلها يا جدتي ؟ قولي فان الأمر مستعجل .

قالت وهي تنتحب : وهل لي الا الموافقة ما دامت ضرورية ، وعند ذلك اتصل الطبيب بالمستشفى وطلب سياره اسعاف وهكذا ، ثم نقل ورقاء الى المستشفى ولم توافق معاد على استصحاب الجدة معهم وتعهدت لها ان تخبرها عن حالها اولا بأول .

سهرت معاد واخوها سناد الذي كان هو الطبيب الذي جاء بصحبتها ، مع ورقاء حتى الصبح وقد اجريت لها فور

وصولها كل الاسعافات المطلوبة •

وفي ساعة متقدمة من الصبح بدأ بعض الهدوء يظهر عليها وان كانت لا تزال في غيبوبة ولكن هذيانها اخذ يكون جملا مفهومة ، وكانت معاد تقف الى جوارها وسناد يجلس على الكرسي الذي في الجهة الثانية حين التقط سمعهما هذه الكلمات التي كانت ترددها ورقاء بين كلمات الهذيان : كانت تقول :

« محال ان يكون ابوهما مجرما، لقد انكسر الصحن يا جدتي ، ولكن معاد ليست ابنة قاتل ، دعيه يذهب هذا المدعو ماهر ، سخيف ، ارجوك ان ترحميني يا جدتي ، دعيه يأخذ البيت ، انا لا اريد ماهر ، ماذا سوف أقول لها، كيف ارفض اخاها ، ارحميني ، لا تقولي انها ابنة مجرم، انها ملاك ، لماذا قتل أباه أبي ، انا لم اره الا مرتين لا اكثر، كفاك كلاما يا جدتي ، لا اريد ماهر ، لا اريد البيت ، لا اريد ، لا اريد ، لماذا قتل اباه ابي ، لماذا » •

هنا التفتت معاد نحو اخيها وقد شحب لونها وقالت : هل سمعت ؟

قال سناد بهدوء : نعم ، ومن هذا يبدو انها معذورة في رفضها •

قالت معاد : لقد كنت اخمن شيئا من هذا ولكن ما هو العلاج الآن ؟

فأبتسم سناد وقال : المهم الآن ان تعود اليها صحتهـا وبعد ذلك يمكن تسوية الأمر .

★ ★ ★

مر يومان كانت ورقاء خلالهما تصارع المرض حتى شاء الله تبارك وتعالى ان يساعدها على اجتياز الأزمة ، وكانت معاد جالسة الى جوارها عندما فتحت عينيها ونظرت حولها لأول مرة نظرة تفهم واستغراب ، حتى استقر نظرها على معاد ، ثم عادت فاغلقت عينيها وكأنها لم تصدق ما ترى أوحسبته حلما من احلام الحمى ، فانحنـت عليها معـاد وقبلت جبينها بحنو وهي تقول : ورقـاء كيف انت يـا اختاه ؟

فعادت ورقـاء تفتح عينيها وتنظر الـى معـاد غيـر مصدقة ، ثم قالت بصوت واهن : هل انت معاد حقـا أم انني في حلم ؟

قالت معـاد : كـلا انـك لسـت فـي حلـم يـا ورقاء فانا معاد ، والحمد لله الذي من علينا بسلامتك يا اختاه .

فأدارت ورقاء عينيها الى الجهة الثانية تفتش عن جدتها ثم قالت : واين جدتي اذن ؟

قالت : انها في البيت ، فقد نبت عنها بمرافقتك وسوف أبعث من يأتي بها اليك ما دامت صحتك قد تحسنت والحمد لله .

قالت ورقاء : ولكن كيف وصلت الى هنا ؟ وكيف وصلت انت الي ؟

فضحكت معاد وقالت : انت الآن تعبانة وعليك ان تخلدي للراحة وسوف اخبرك غدا بجميع التفاصيل ، وها انا ذاهبة للاتصال بجدتك .

قالت ورقاء : كلا لا تذهبي وتتركينني وحدي يا معاد فانني خائفة .

قالت معاد : ولماذا الخوف يا ورقاء وانت الآن بخير ؟

قالت ورقاء : انني لا أخاف من الحمى ولكنني أخاف من الناس .

قالت معاد : انني سوف لن اتأخر عنك أكثر من دقائق ان شاء الله .

وهنا فتحت الباب ودخلت الجدة مندفعة نحو ورقاء فبادرتها معاد قائلة : انها بخير يا جدتي وقد سألت عنك قبل لحظات .

فانحنت الجدة تقبل ورقاء وهـي تسكـب الدموع ، فسألتها معاد : كيف أتيت وحدك يا جدة ؟

فظهر الارتباك على الجدة ثم قالت : لقد مر علي الطبيب الذي كان معك وجاء بي الى هنا .

فردت معاد تقول بشيء من الاعتزاز : انه أخي سناد ، فهل رأيت كم هو رائع يا جـدة ؟

فاستغربت ورقاء ما سمعت ولم تعلم كيف تفسر الموقف، ولكنها كانت في حالة لا تسمح لها بالمزيد مـن الكـلام فأخذت يد جدتها بين يديها واستسلمت للنوم .

احتلت الجدة الكرسي الذي كانت تجلس عليه معاد ، وعادت معاد الى غرفتها ومهامها بعد ان اطمأنت على صحة ورقاء ، وكانت الجدة المسكينة في حيرة من أمرها وتحديد موقفها من معاد ، وقـد حدثت ورقـاء بتفاصيل الموقف وكيف انها اضطرت الى استدعائها وطلب معونتها بعد ان خذلها ماهر ، وحدثتها بأمانة ايضا عن الجهود التي بذلت من قبل معاد واخيها من اجل انقاذها .

وقالت لها ورقاء بعد ذلك انظري يا جدتي الى البون الشاسع الذي بين اخلاق ماهر ومعاد .

قالت الجدة : نعم، نقد كانت معاد واخوها مثالا للشهامة وتجاوز الذات اما ماهر فقد ظهر زيف دعواه ولكن •••

ثم سكتت الجدة وفهمت ورقاء ما وراء هذا السكوت فسكتت هي بدورها ايضا وأوكلت الامور الى الله الواحد القهار •

وفي صباح اليوم الثاني جاءت معاد وكانت ورقاء قد تحسنت صحتها وجلست على فراشها ، ففرحت معاد بذلك وجلست الى جوارها على حافة السرير وهي تنظر اليها في سعادة •

ثم قالت للجدة : ان لدي ساعة من الوقت اتمكن ان أجلس فيها الى جوار ورقاء فاذا اردت ان ترتاحي خلال هذه الساعة فتفضلي يا جدتي ، فرحبت الجدة بهذا العرض واستلقت على الاريكة وأدارت وجهها نحو الجدار •

أما ورقاء ، فقد بدأت تشكر معاد على موقفها منها فقالت لها : ان لك علي حق الحياتين الفكرية والجسمية يا معاد فكيف لي ان افي حقك من الشكر يا اختاه •

قالت معاد : ان هذا واجب كل اخت تجاه اختها يا

ورقاء وانني جد شاكرة لجدتك اتصالها بنا والا لكنت ضحية من ضحايا هذه الحمى الحمراء القاسية .

وهنا قالت ورقاء بتردد : جدتي ، نعم ، انها راضية منكما يا اختاه .

قالت ورقاء : انك ما زلت تنادينني بنداء الأخوة دون ان تعرفي عني كل شيء يا ورقاء .

فبهتت ورقاء لحظة ثم قالت : ماذا تعنين يا معاد ؟

قالت معاد : اعني انك ما زلت تجهلين قصة حياتي .

قالت ورقاء : وهل لحياتك قصة خاصة ؟

قالت معاد بصوت لا يخلو من بعض الارتباك : نعم انها قصة تبدأ منذ كنت انا واخي سناد في بطن امنا .

فردت ورقاء باستغراب : كنت انت واخوك حملين في بطن امكما ؟ هل انتما توأمان اذن ؟

قالت معاد : نعم ، ولم يتقدمني بالدراسة الا لأنني مرضت في طفولتي وتركت المدرسة ثلاث سنوات .

قالت ورقاء : آه هكذا اذن ؟

قالت معاد : ألم تلاحظي الشبه الشديد الموجود بيننا يا ورقاء ؟

قالت ورقاء بشيء من الخجل : الحقيقة انني لم اركز النظر في وجهه يا معاد .

فابتسمت معاد وقالت : وهذا هو المأمول منك يا ورقاء .

قالت ورقاء : والآن . ما هي القصة ؟

قالت معاد : انها تتعلق بأبي ! وهنا خفق قلب ورقاء وقالت : تتعلق بأبيك ؟

قالت : نعم ، فقد توفي قبل ان نرى النور بشهر واحد على اثر حادث اصطدام .

قالت ورقاء بتعجب : مات قبل ولادتكما ؟

قالت معاد : نعم . ولهذا فقد ولدنا يتيمين !!

وهنا تململت الجدة وكأنها رفعت اذنها عن الوسادة لتسمع بشكل أوضح ، وعادت ورقاء تقول في لهفة : انتما ولدتما يتيمين ؟

قالت معاد : نعم . هذا هو الواقع اما الظاهر فهو اننا لم نفقد ابانا الا قبل سنتين .

قالت ورقاء : لست فاهمة ماذا تعنين يا اختاه ؟

قالت : اذن اليك فاسمعي القصة من بدايتها لقد كان أبي « حمزة عبد الرزاق الرحباوي » رجلا فقيرا لا يملك من دنياه شيئا سوى حسن السيرة واعتدال السلوك وطيب السمعة ، ومن أجل هذا اختارته امي اليتيمة من الأبوين وقدمته على ابن عمتها الشاب المنحرف الغني ، وقد كانت امي الى جانب جمالها تملك رصيدا محترما من المال ورثته عن أبويها ، وعاشت امي مع ابي الى مدة لا تتعدى السنتين ، وكانت امي قد بلغت من حملها الشهر الثامن عندما توفي ابي ، وبقيت امي تعاني آلامها وحيدة الا من عمتها وابنها الذي سبق ان خطبها من قبل ، وقد قدما لها العمة وابنها الكثير من العناية والرعاية حتى حانت ولادتها ، واستمرت العمة تعنى بها العناية الكاملة الى ان انقضت ايام العدة ، فعرضت عليها العمة ان تتزوج ابنها لكي يكون لها ولوالديها واليا وكفيلا وامتنعت امي في البداية، ولكنهما اصرا عليها وقدم هو لها مختلف العهود والمواثيق على

انه سوف يعتدل في سلوكه ويتفرغ لرعايتها ورعاية ولديها ، ولن تجد منه سوى الحب والحنان ، وبما انها كانت في حاجة الى من تستند اليه في تربية ولديها وتعتمد عليه في اعداد مستقبلهما فقد وافقت على الزواج مرغمة وبعد مضي فترة وجيزة علمت انه قد استخرج شهادة ميلادنا باسمه ، وبهذا فقد نسبنا اليه ، فأغضب ذلك امي وأسخطها وثارت عليه ، ونقمت هذا منه ، واعتبرته تعديا على حقوقنا ومصالحنا ، وكلما حاول اقناعها بانه قد انجر ذلك لمصلحتنا لم تقتنع ، فاخذتنا وذهبت الى بيت ابيها المهجور معرضة عنه ساخطة عليه ، فبدأ يبعث اليها بالرسل ويجدد العهود الكاذبة ، ويكتب اليها أرق الكلمات ، حتى عادت مرغمة من جديد •

ونشأنا نحن لا نعرف لنا أبا سواه ، وطالما عجبنا لقساوته علينا مع ما نشاهده من حنان الابوة لدى الاخرين •

قالت ورقاء بألم : أو كان قاسيا عليكما يا معاد ؟

قالت معاد : نعم وقد نكث بجميع العهود والمواثيق واستولى على اموال امي فبددها في لهوه ومجونه حتى

اعتلت امي من جراء ذلك وبقيت عليلة حتى توفيت قبل سنوات .

ولما بلغنا سن الرشد حدثتنا امنا بحديث ابينا وقدمت لنا برهانا على صحة ما تقول .

وهنا بادرت ورقاء تسأل في لهفة : وما هو البرهان يا معاد ؟

قالت انه الرسائل التي كان يكتبها اليها عندما هجرته وفيها يتحدث عن ان نسبتنا اليه من صالحنا وكان يذكر ابانا في رسائله بكل خير ، ثم انها ارشدتنا الى أفراد كانوا على علم بنسبنا من قبل ، وهكذا بقينا نعاني مشكلة انتسابنا اليه حاملين معه تبعات اوزاره حتى مات قبل سنتين ، فوجدنا في صندوقه الخاص ورقة مختومة كتب فيها اعترافا بعدم بنوتنا له مع ذكر اسم ابينا وتقديم الأدلة على ذلك وكأنه خشي ان يورثنا شيئا من ماله الحرام فبخل به ، كما اننا وجدنا عنده كثيرا من الأوراق تعود للاخرين لم تتمكن ان نستوعبها ، وقد فتحت امامنا هذه الوصية طريق المطالبة بتصحيح نسبنا مع الرسائل التي لدينا من امنا مع الشهود الذين سبق وان ذكرتهم امنا، وسوف تظهر النتيجة خلال هذه الايام ان شاء الله .

فهل عرفت الآن يا ورقاء من هو ابو سناد ؟

فردت ورقاء تقول بصوت مبحوح من التأثر : آه نعم (الآن عرفت اباه) ثم ألقت برأسها على كتف معاد وهي تقول : والآن عدت اليك يا اختاه •

فاحتضنتها معاد وقد تندت عيناها بالدموع وهي تقول : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » •